الطبقات الاجتماعية في العصر العباسي


الظرفاء والشحاذون

في بغداد وباريس

تأليف


صلاح الدين المنجد

مطبعة الرسالة



الظـــرفاء

صـفحة



تقديم الكتاب

للأستاذ أحمد حسن الزيات

تاريخ الإسلام الاجتماعى هو تاريخ الشرق كله أدناه وأقصاه فى عصوره القديمة والوسيطة ومعظم الحديثة . فإذا أضفت إلى الشرق من بلاد الغرب ، شبه جزيرة إيبريا ، وشبه جزيرة البلقان ، كان مدلول المجتمع فى التاريخ الإسلامى أعمق وأصدق وأدق . و إذا وجدتَ فى ملكوت الرومان بالأمس ، أو فى ملكوت الإنجليز اليوم ، ما يشبه هذه السعة فى الأرض، وهذا التباين فى الناس ، فلن تجد فيهما ولا فى غيرهما ذلك المزيج الاجتماعى العجيب الذى ألفه الإسلام من شتى العناصر والطبائع والأخلاق والأذواق والبيئات والعادات والديانات والحضارات والثقافات والأساطير ، فكان من أغزر المصادر وأخصبها وأعجبها للعالم النفسى الذى يحلل ، وللمؤرخ الفلسفى الذى يعلل ، وللشاعر الروائى الذى يستلهم ، وللكاتب القصصى الذى يقتبس ، وللراوية الأديب الذى يُلطِف ، ولكل من يوجهه استعداده أو إعداده إلى استغلال الفكر الشرقى، والنشاط الإنسانى ، فى مختلف حالاته وشتى صوره .

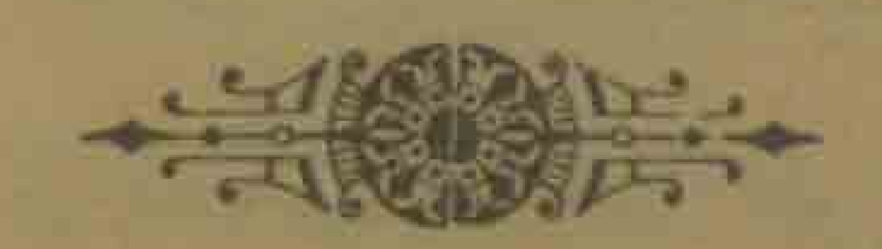
ومن المصائب التى جرها على أخلاقنا مركّب النقص ، انصراف أدبائنا ومؤلفينا عن هذا المحيط الزاخر بعجائب الخلق ، وغرائب الأخلاق ، وطرائف التمدن ، إلى أوشال من حضارة الغرب لا يصلها بنا سبب من شعور أو عقيدة أو مجد ، حتى جرؤ بعضنا على أن يقول : إن من الرجعية أن يكتب الشرقيون عن عمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ، وصلاح الدين ، على حين يكتب الأوربيون عن رزفلت ، وتشرشل ، واستالين ! !

لذلك كان صديقنا الأستاذ المنجد بَرًّا بفنه وأدبه وعربيته وقوميته حين اتجه إلى الحضارة الإسلامية فى عصرها الذهبى يجلو صورها الاجتماعية الطريفة فى مجلاه المعروف بصفاء الذوق ، وأناقة الأسلوب ، وحسن الاختيار ، وجمال العرض ، ودقة الموازنة ، وصحة الحكم . وهو فى هذه الصفحات المشرقة التى أقدمها إليك اليوم ، يعرض عليك صورتين من صور الطبقات الاجتماعية فى العصر العباسى : أولاهما فى الدرج الأعلى من سلم الحياة وهى طبقة الظرفاء ؛ وأخراهما فى الدَّرك الأسفل منه وهى طبقة الشحاذين . والطبقتان على ما بينهما من البعد فى مسافة الخلف ، تسمهما الحضارة العباسية بالسمة الغالبة على جميع الطبقات ، وهى اعتماد كل طبقة منها على أصول مرعية وآداب

محتومة ، يميزها لباقة السلوك ، ونصاعة الأدب ، وبراعة الذهن ، ولطف الحيلة . وتلك مزية الحضارة الصحيحة إذا بلغت أوجها الممكن سطعت سطوع الشمس فنال من ضوئها وحرارتها كل رأس وكل نفس فى أى طبقة وفى أى بيئة .

إن فى الجمع بين طبقتين متضادتين من أهل بغداد ، وفى الموازنة بين أحوالها وأحوال أشباههما من أهل باريس ، لدليلا على ظَرافَة فى طبع الأستاذ المنجد وطرافة فى ذوقه . وإن فى عرضه لهاتين الصورتين هذا العرض المشوِّق الجذاب ، إغراء للقارئ بطلب المزيد ، وإيحاء للمستزيد بتقديم الشكر .

وفى مرجونا أن يتابع الكاتب الصديق سيره المتئد فى هذا الروض العبقرى الأفيح ، فيقطف منه ، الفينْة بعد الفينة ، أزهار الجمال والفن والأدب ، تبصرة وذكرى لشبابنا الذين أوشكوا — على ما يظهر — أن ينسوا أن لهم قديماً كان جديد الناس ، وحضارة كانت منار الشعوب ، وطابعاً لا يزال أثره واضحاً فيما ورثه الغرب من علم وفن وأدب ومدنية ؟



تمهيد

دفعتنى إلى دراسة أحوال الطبقات الاجتماعية فى العصر العباسى ، رغبة عزامة فى إظهار الحضارة الإسلامية وما بلغته من سمو وعلاء . ثم إنى أدركت ما وراء هذه الرغبة من جهد وبلاء . فالطريق عثار ، والكتب فوضى ، والعناصر مبعثرات ، والمحصول — بعد ذلك — قليل . ولم أجد فى القدامى من أفرد فى عصر من العصور كتاباً قائماً بنفسه لتصوير الحياة الاجتماعية ، لا يخرج عما وضع له حتى آنس به . فالأدباء ، كانوا يقصدون اللهو ؛ والمؤرخون عقلتهم حادثات السياسة والحرب فأهملوا المجتمع ؛ وعلماء البلدان تركوا صوراً قلائل قد تفيدك ؛ والرحالون ، غرهم ما كانوا يلاقون من إكرام وترحاب ، فوصفوا ما أحاط بهم ، من مظاهر خارجية ، وأهملوا التحرى والاستقصاء . وقد تصادف عندهم بعض ما تشتهى مما يعوزه الدقة والشمول ؛ لأن دراسة أحوال الطبقات الاجتماعية ، وعرفان سننها فى مرافق الحياة ، وإدراك ميولها فى ضروب المعاش ، كل أولئك يتطلب مراقبة طويلة ، ومهلة كبيرة ، ومرافقة دائمة ، وزمناً غير قصير .


وكأن فى القدامى من كان ينظر فلا يلاحظ ، و إذا لاحظ فلا يفكر ، و إذا فكر فلا يقايس ، و إذا قايس لم يوازن . وهذا جلى فى بعض من كتب تاريخنا وأدبنا .

واعتزمت على البحث والتنقيب ، ونفضت كتب المحدثين والأقدمين ، غير حافل بنصب المطالعة ، ولا فوضى التأليف . ولقد ألفت غبار المخطوطات ، واعتدت قراءة أسقم الخطوط . وما زلت أذكر كم كنت أكابد من تعب ، أو أقطع من وقت لأصطاد جملة ، أو أتثبت من قول ، أو أجتنب شبهة . حتى بلغت ما أملت ، وظفرت بما يعيننى على بحثى الوسيع الذى تجد فى هذا الكتاب طرفا منه .


ومهما يكن من أمر فستجد فى كتابى هذا مبحثين موجزين بكرين ، يصوران طبقتين من طبقات المجتمع العباسى ما أحسب أن أحداً من المعاصرين سبقنى إليهما ، أو طرقهما بمثل ما فصلت و بينت . أما المبحث الأول فسيرة الظرفاء ، وهم صفوة الناس الأرستقراطيين . وأما المبحث الثانى فسيرة الشحاذين ، وهم رذالة الفقراء المعوزين . ولم أنس ، أن أقايس بين هؤلاء وأولئك ، و بين أشباههم من الفرنسيين ، وأملى بعد ذلك ، وقد أوتيت الذوق والفهم والبصر ، أن يعجبك الكتاب فيغريك موضوعه ، و يروقك نهجه ، وتجد فيه مايلذ و يفيد .

بستان الرئيس
دمشق

صلاح الدين المنجد



الظرفاء



الفصل الأول

حقبة الترف

١ — رفّت فى العصور العباسية حقبة ذهبية ، ترِفَ الناس خلالها فافتنّوا فى الحياة ، والمعاش ، واللذة ، واللهو ، والتفكير ، وقد طغى الترف فيها على كل شىء حتى ليصح أن تسمّى « حقبة الترف » . بدأت بخلافة المهدى (١٥٨ هـ) ، وانتهت فى أواخر القرن الرابع الهجرى . فزهت بغداد ، دارُ الملك ، بالنعيم ، وكانت مركز الذوق الرهيف ، والفكر الرشيق ، واللهو الحلو ، والطبع الرقيق ، والغنى الواسع ، والحب الناعم ، والظرف الجميل .

عناصر الترف

يقول « بودريّار Baudrillart » فى كتابه « تاريخ الترف » : إن الترف ينهض على عناصر أربعة . أولها : الزهو والكبرياء . فالمترَفُ يزهَى ، ويسعى إلى تأييد زهوه بطرافة ما يحيط به . فينشأ عن ذلك ترفُ النفَّاسة بين المنعمين ؛ فهم يتنافسون فى التزين والأناقة ، ويطمعون فى مرضاةِ أشباههم ونيل إعجابهم ؛ فينفقون ولا يأبهون ، ويسرفون ولا يخافون . ثانيها : التمتع بكل لذة حسية يمكن قطافُها والتنعمُ بها

فى هذه الدنيا ؛ مهما كان لونها وشأنها ، رفعتُها وحقارتُها .

ثالثها : غريزة التزين ، والإقبالُ على الزخرفة والتزويق .

رابعها : حب الطريف الذى لم يعرفه الناس فى كل شىء وسرعةُ مَلاله إذا عرفوه ، والرغبة فى التنقل من طريف إلى جديد . وبهذين العنصرين الأخيرين يتصل الترف بالفن أوثقَ الاتصال وأمتنه .

الترف فى الحياة الاجتماعية العباسية

٢ — والحقيقة أن هذه العناصرَ كلها ، كانت عند أناس بغداد فى تلك الحقبة .

فقد رفت الحضارة وأزهرَ الترف ويَسُرت الحياة ، فزهى الخلفاء والأمراء والوزراء ، والظرفاء من الندامى والشعراء ، وانطلقوا إثرَ اللذات كلها يصطادون طريفها ، ويتخيرون طيبها ، يَحْيَوْنَ فى قصور ضاحكة ، تسجو فى ظلال النخيل ، وتشرق بنضارة النعيم . فيها ستورٌ حُمْرٌ ومعَصْفرة ، ومجالسُ زُهرٌ مشرقة ، وجُدُراتٌ ذُهِّبت بالإبريز وموّهت باللازورد ، ونُقشت بالصور ، وازدانت بالتماثيل . وفيها أبوابٌ عِظام ضِخام تتدلى منهن مساميرُ من ذهب قُمّعت رؤوسُها بالجوهر النفيس ، وفُرُشٌ مختلفاتُ الضروب والصنوف ، وبُسُطٌ زُركشت بالنّضار وطُرِّزت بالحرير[1] . ويطربون لنغمات المزاهر والعيدان

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٩٥ .

ويَثْملون برشفات الخمر ، وعَبَقِ الريحان . ويرعون الجمالَ الغضّ ، بين غلمان وحِسان . ويلبَسون الوشْى والخزّ . ويأكلون لحم السمك والدّجاج . ولا يبالون فى سبيل ترفهم هذا ، أن يعلفوا الفراريج بالفستق المقشر ، ويسقوها اللبنَ والحليب(١) ، أو أن يطعموا كلابَهم الدجاجَ المسمّن والجِداء كما يأكلون ، ويعلفوا حميرهم السمسم كما يتنقلون(٢) . ثم يشْغفون بصيد الظباء والوحوش ، ويهيمون باقتناص المجانات فى البساتين والرياض بين الأزهار والأنوار ، ويقطّعون الليالى فى الدّيارات والخمارات ، على هدير السُّلافة ، ورنين الناقوس ، وهتفَاتِ السكارى ، وأشعارِ الندامى ، ورعاية الراهبات(٣) . فإذا فرحوا فلا تسل عن البذخ ، ولا تحفل بالدنانير ، ولا تشدهك الأناقة . فالمهدىُّ يزوّج الرشيد ؛ فيعدّ لعرسهِ من الفُرش والمتاع ، والآنيةِ والآلات ، وصناديق الحلى والجوهر ، والأكاليلِ والتيجان ، وقبابِ الفضة والذهب ، ومثاقيل المسك والعنبر ، ما أنفق عليه خمسين ألفَ ألفِ دينار(٤) . والمأمون

---

(١) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص ١٤٠

(٢) البخلاء ص ١٩ ويتيمة الدهر ج ٣ ص ٥٠ .

(٣) الديارات للشابشتى (مخطوط) أنظر مثلا دير السوسى، دير مرمار

(٤) عيون التواريخ ، لابن شاكر (مخطوط فى الظاهرية) ج ٦ سنة ١٦٥ .

ينثر فى عرسه ألفَ حصاة من الياقوت ، وتميس بوران أمامه فوق بساط نسجُهُ خيوطٌ من الذهب ، كلِّلَتْ بالدرر[١] . بل دعْ هذا وذاك ، وتمثل وليمةَ المتوكل فى إعذار ابنهِ المعتز ، وانظر إلى خمسة آلاف باقة من النرجس ، وعشرة آلاف باقة من البنفسج ، ينثرن فى جنبات القصر ، فتعجّ بشذاها أجواؤه ، وتزدانُ بمنظرها أبهاؤه[٢] . فما تبصر عيناك ، أينما توجهت ، غير إشراق الجمال ، وسطوع الذهب ، ووَفرةِ الهبات ، والغلوّ فى البذخ ، والإسراف فى الإنفاق ، ونفاسةِ المأكول ، وغرابةِ المشروب ، وثمين الملبوس ، والناعم من كل فن .

٣ — فليس من الغريب ، أن تولّد هذه الحياة المترَفة ، وتلك الدنيا التى حفِلت بالجوهر والياقوت ، والذهب والفضة ، والحِسانِ والغرانيق ، والحب والهوى واللذة والشعر ، قوما لهم عاداتُهم وطباعهم ، ولباسهم وطعامهم ، ولهوهم وقصفهم اسمهم « الظرافُ والمتظرّفات » .

لقد كانوا أبناء تلك البيئة النادرة التي أنشأتها أجناس وثقافات وثروات . فقضوا حياة كلُّها فن ؛ لأن الفن ، كما يقول

---

(١) المصدر السابق : ج ٦ سنة ٢١٠ .

(٢) الديارات للشابشتى : دير السوسى .

الأستاذ لالو ، هو وليدُ الترف ، أو هو الترف منظما[١] . فساقهم هذا الفن إلى الأناقة والتزويق ، ثم إلى التكلّف والتصنيع . وقد تجد لديهم بساطة لا تخلو من جمال ، لأن البسيط هو الجميل . وقد يعجبك النظام الذى اتبعوه ، والفوضى التى أحبوها بعض الأحايين ، على أن الذى يدهشك حقاً هو الكمال الاجتماعىّ « La perfection Sociale » الذى بلغوه ، ثم لا تلبث إذا علمت سيرتَهم أن تقِرَّ بأنهم عرفوا وذاقوا ما لم يعرفه الغرب أو يذقه ، إلا فى هذه الأيام ، بعد مئات من السنين .

---

(١) Ch, Lalo L, Art et la seie Sociale P. 91.

الفصل الثانى

مبدأ الظَّرف (*)

٤ — انتشر الظَّرفُ أول ما انتشر، كمذهبٍ فى الحياة اتبعه نفرٌ من الناس، مذ تولى المهدىّ الخلافة (١٥٨ هـ). فقد اتسعت أموالُ الخراج والجبايات، وحُملت من الأقطار والكُور إلى بغداد. فقاضت الثروةُ وتَرِف المثرون، وانطلق الفرسُ فى العراق ينشرون ما اعتادوه من عادات، وما ورثوه عن أمتهم من سُننٍ فى الحياة؛ ينقلون إلى اللغة العربية كتبهم وسِيَر ملوكهم، ويؤلِّف أدباء بغدادَ فى أخلاقهم وخصالهم. فقد نقل ابن المقفع كتاب «خداينامه» فى سِير الملوك[1]. وألف الجاحظ أو الثعلبى كتاب «التاج».

وضعف سلطان الدين فى قصور الخلافة، فأعرضَ المهدىّ

(*) لا نتحدث هنا عن الظرف الذى كان فى الحجاز وخاصة فى المدينــة فى القرن الأول، لأنه من نوع آخر، لم يتبع نهوجا وقواعد وقيودا كظرف بغداد، ولم يكن وليد الترف والتصنع والحضارة، وهذا ما أردنا تبيانه هنا، بل كان لا يعدو خفة الروح ورقة الطباع.

(١) الفهرست ص ١١٨.

عما كان يفعله السفّاحُ والمنصورُ من التزمت والوقار[١] ، فمهّد السبيلَ لمن تبعه من الخلفاء ونَعم ولدٌ ، حتى أخرج قصرُه ولده إبراهيم ، زينةَ المجالس وبهجة الندامى ، كما أنبَتَ عُلَيَّة ريحانةَ النساء وحِلية المتظرّفات[٢] .

الظرف والزندقة

٥ — ولسَرْعان ما تسابق الناس إلى الظرف ، فقد أضحى « هواية العصر » وصار محبباً إليهم يودون انتحاله ، واللحاق بأصحابه . وأصحابه أناس أطلقوا لأنفسهم فى اللهو العِنان ، وجروا وراء اللذات والمسرات ، وهاموا بالجمال والنُعميات ؛ لا يقيدهم قيد موروث ، ولا يأسرهم عُرف معروف ، ولا يحول حائل بينهم و بين ما يشتهون . فاقترن الظرف بادىء بدء بالزندقة ، وسواء أكانت زندقة المتزندقين حقاً أم افتراءً ، فقد لمس أهل بغداد فيهم رقة ولطفا ، ورأوا حرية فى العواطف والأفكار ، وصراحة فى إظهارها والجهر بها . وتلك أشياء لم يألفها الناس العوامّ والخواص ، ولم يكن لهم عهدٌ بها . فالدين جديدٌ وهم قريبو عهد بالتابعين . فكان أن قالوا : « أظرفُ من زنديق » لأن الزندقة لم تمنعهم من الاعتراف بظرف أصحابها . وسار ذلك مثلاً على قول الثعالبى ، فى زمان كثُرَ ظرفاؤه — وهو زمنُ المهدى —

(١) التاج فى أخلاق الملوك ص ٥٣ .
(٢) ضحى الاسلام ج١ — ص١٠٨ .

كصالح بن عبد القدوس، وبشار، وحمَّاد، ومطيع، ويحيى بن زياد وعليّ بن الخليل، وأمثالهم ممن تقدّمهم بقليل كابن المقفع وابن أبى العوجاء. وما منهم فى الظاهر إلا نظيف البزّة، جميل الشكل، ظاهر المروءة، فصيح اللهجة، ظريف التفضيل[١]

وإذا لاحظت أن الكثرة من هؤلاء الذين سماهم الثعالبى بل كلهم، كانوا من أصل فارسى، علمت أن الفرس هم بدأوا بالظرف، وأخذوا بنشره. ولعلهم لم يقصدوا نشره قصدا، وإنما كانت طباعهم ونشأتهم البسيكولوجية أقرب إلى الرقة والأناقة والحضارة من طباع العرب، وهم قِراب عهد بالبادية وما فيها من شدة وقسوة وجفاء. فلم يكن بد، وقد ظهر ظَرْفُهم، وشاعت نوادرُهم من أن يقبل على التظرف، كلُ بعيد عنهم أو قريب منهم. فأصبحت الزندقة سبيلا إلى الظَّرف. وأضحى الجاهلُ الغرُّ يتطفل على الزندقة، وينتحلها ليُعَدَّ من الظرفاء[٢] وقد ذكروا أن محمد بن زياد تزندق تظارفاً فقال ابن مناذر فيه:

لستَ بزنديق ولكنّما أردتَ أن توسمَ بالظرّفِ[٣]

وربما كان الظرف بعيداً عنه، لا سبيل له إليه، بل ربما

---

(١) ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ص ١٣٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٨ .

(٣) الأغانى (ساسى) ج ١٧ ص ١٥ .

فاتته الرّقة وأعوزه الذوق ، ولكنه تزندق ليقال إنه ظريف :

تزندقَ معلناً ليقولَ قومٌ   من الأدباءِ ، زنديقٌ ظريفُ

فقد بقى التزندقُ فيه وسماً   وما قيل الظريفُ ولا الخفيفُ(١)

انتحال الذوق بالظرف

٦ — على أن الأمر لم يقف عند اكتساب الظرف ، بل تجاوزه إلى انتحال الذوق والعقل والأدب عن طريق الظرف أيضاً. يقول الجاحظ : « فربما سمع أحدهم ممن لا معرفة عنده ، ولا تحصيل له ، أن الزنادقةَ ظرفاء ، وأنهم عقلاء ، وأن لهم البصائرَ فى دينهم ، والبذلَ لمهجتهم ، وأن هناك علماً وتمييزاً ، وإنصافاً وتحصيلا، فينزو نحوهم نزْوَ المهر الأرنّ ، ويحن إليهم حنين الواله العجول ، ويتصبّبُ فيهم صبابة العاشق المتيم ، ويرى أنه متى اتُّهم بهم فقد قضى له بذلك كله »(٢) .

متظرفو باريس وانتحال الرقة والفهم

٧ — هكذا كان المتظرّفون يلتمسون العلم والعقل والأدب بالظرف ، ويلتمسون الظرف بالزندقة . كما التمس المتظرفون فى فرنسة ، فى القرن السابع عشر ، الرقة ، وإشراق الذهن ، والفهم والنبل ، بالظرف أيضاً ؛ حتى لجوا فى ذلك وتكلّفوا ، فخرجوا عن الظرف إلى الحذلقة . وأضحوا بشذوذهم أضحوكة الشعراء ، وأهزولةَ الأدباء .(٣)

---

(١) ثمار القلوب ص ١٣٩ .

(٢) ثمار القلوب ص ١٣٩ .

(٣) N. Larousse Illustré. mat. Précieux T. VII.

على أن ظراف بغداد لم يتكلفوا تكلف ظراف باريس ، ولم يكونوا سخرية الشعراء ، بل كانوا مهوى الأفئدة ومُنية الأرواح .

الظرف بين الفرس واليونان

٨ — وطغت الحضارة ، فانغمس فيها ناس من الناس ورقّت الطباع والأذواق وأخذ أهل بغداد عادات الفرس كلها فى الحياة . ولعل أثر الفرس فى ذلك كان أظهرَ من أثر اليونان . فلقد أثر اليونان فى الحياة العقلية فأنتجت الفلسفة والجدل والمنطق ... ، وهذه أشاوٍ لا تتصل بالظرف بقليل ولا كثيرٍ ، ولم يؤثر عن ظريف أنه قطع عمره بالفلسفة ؛ لأن حياة الظرف وما فيها من لهو وأنافة وزينة ، هى أبعد عن تلك الحياة . ومن الواضح أن الظرف زاد ونما ، وانتشر انتشاراً واسعاً ، وصار نتيجة أسباب شتى من الحضارة والثقافة والجنس معاً . ولا ننكر بعد هذا أثر المرأة وما كان لها من تأثير فى تلطيف العيش واختراع ضروب اللهو وألوان اللذات ؛ فسعى نحوها الرجال فتذوّقوا ورقوا ، وسعت القيان إلى أولئك الرجال ، فبرّقْنَ أنفسهن وتزيّنَّ ، وجهدن فى إرضائهم وإغوائهم . فكان من نتائج هذا السعى المتبادل التظرّفُ والتزينُ والإرضاء .

ونلاحظ أنه قلَّ مَنْ نُعت بالظرف من الفقراء . فقد خُصّ بأولئك الذين ذاقوا النعيم فى قصور الخلفاء والوزراء ، من

الشعراء والأمراء والندماء والأدباء . أما فى النساء ، فقد كانت القينات مصدر الظرف ، سهرن عليه ورعينه .

الظرف فى القرن الرابع

٩— وما زال الظرف ينمو حتى أصبح له قواعد ونُظم . وبلغ ذروة الكمال فى القرن الرابع . تدرّج من البساطة إلى التكلف ومن الأناقة إلى التأنق ، ومن الظرافة إلى التظرّف . وشاعت الزينة والتزويق فى كل شىء . وألف الوشّاء كتابه الموشّى فضمّنه بعض أحاديث الظراف ، ووصفهم فى قصورهم كما وصف « ماريفو Marivaux » فى مسرحياته ، الطبقة المتظرفة المترّفة ، فى عالم يرفّ بالذهب والحرير ، تحت ظلال الملكية ، فى القرن الثامن عشر .(١)

منشأ الظرف فى باريس « قصر رامبويه »

١٠— هذا مبدأ الظرف فى بغداد ؛ أما منشأ الظرف فى باريس فكان فى قصر رامبويه . L,Hotel de Rambouillet وكانت المركيزة صاحبته ، أول من دعا إلى الظرف فى فرنسة . فكان يجتمع فى قصرها العظيم الظراف الكبار من الأرستوقراطيين والأدباء والشعراء ، أشباه فواتور Voîture ذى الظل الخفيف والنكتة البارعة ، وفوجولا Vaugelas النحوى ، وكورنيل Corneille الشاعر ، ولاروشفوكو LaRochefoucauld الحكيم

(١) Louis Jouvet, Marivaux : Theatre et Personnages Conferencia : xlll, Juin 1939. P. 2o.

و بوسّويه Bossuet الواعظ . تحيط بهم أجمل النساء وأرقهن كمدام دُ سيفينيه Mme de Sévigné صاحبة الرسائل، ومدام دُلافاييت Mme de La Fayette مؤلفة « الأميرة دُ كليف Princesse de Cléves » ، والآنسـة « دُسكوديرى Mlle de Scudery، ومدام سابله Mme Sablé ، والكونتيس دُمور Ctésse de Maure وكان هدفهم جميعاً ترهيف الأذواق وصقلَ العادات ، وتهذيبَ اللغة .

وفى القرن الثامن عشر حذت «مدام لامبير Mme Lambert حذو المركيزة دُ رامبو يـّة ففتحت بهوها وأحاطت نفسها بالأدباء والفلاسفة . وتبعتها « مدام دُ ديفاند Mme du Deffand » « والآنسة دُ ليسبيناس Melle de Lespinasse » وأصبحت هذه الأبهاء الأدبية مركز الظرف تارة والحذلقة والتصنع أخرى

مقايسة بين ظراف بغداد وباريس

١١ — ولعلك تجد بعد هذا تشابهاً بين ظرافنا و ظرافهم . ولقد نما الظرف فى بغداد عند الطبقة الأرستوقراطية ، كما خرج فى قصر رامبو يّة وساعد على نشره المترفون فى باريس و بغداد ، وحمته النساء هناك ، ورَعَتْه القيان هنا ، ثم كان التزويق عندنا ، وكان التصنع والتحذلق عندهم .

وكما كان ظرافنا الأدباء والشعراء والندامى والقيانُ يجتمعون فى أندية خاصّة ، أو فى قصور الخلافة ، ينشدون الأشعار ،

ويستمعون إلى الغناء ، ويتجاذبون أطراف الأحاديث ، كان ظرافُ قصر رامبويه يستمعون إلى الشعراء ينشـدون الشعر ، وإلى الأدباء يرسلون النـكات . وفى الغرفة الزرقاء ، غرفةِ المركيزة ، المزدانةِ بالزَّهر فى أوانى البلور ، ذاتِ النوافذ العريضة التى يتدفق منها النور ، كانوا يرقصون ويطربون ، فواحدة تغنيهم أغنيهم الشهيرة L'ijncomparable Arthèmice وأخرى تقص عليهم الأقاصيص ، وڤوجولا يلطف لهم النحو ، وكورنيل يقرأ عليهم مسرحية بوليوكت Polyeucte ، وبوسّويه يرسل مواعظه . ولعل فى رواية « سيروس الكبير Artaméne Ou le Grand Cyrus » التى ألفتها الآنسة دُ سكوديرى M elle Ole Scudery صورة دقيقة ناطقة لنساء هذا القصر ورجاله ، وروّاده وزائريه (١)

---

(١) وإن شئت التفصيل فانظر :

Hazard, Bedier : Litterature Sraucaise Zllustee' T. 1 P 230. Livet : Précieux et Précieuses [Poris 1910]

الفصل الثالث

الظَّرف والظريف

في كتب اللغة

١٢ — ولعلك تسآءل بعد ، عن الظَّرف والظريف ، وتود أن تعلم كيف يصبح الرجل ظريفاً . أما كتب اللغة فتقول «الظَّرف (بالفتح) الوعاء ؛ وهو الكياسة . وقد ظَرُفَ ظَرْفاً وظَرَافة ، فهو ظريف من الظرفاء . ويكون الظرف في اللسان ، أو هو حُسن الوجه والهيئة ، أو البراعة والحذق والذكاء ، أو التودد إلى الإخوان . ولا يوصف به إلا الفتيان الأزوال ، والفتيات الزولات[1]» .

في كتب الظرف

١٣ — فأنت ترى أن كتب اللغة لم تحدّد معنى الظرف ولم تعرفه تعريفاً شاملا يتضمن خصائص هذه الكلمة ، وما توحيه من معان ، وما يتبعها من ألوان وظلال ، وما تشير إليه ... فقد تركته تعريفاً واسعاً لا جزم فيه ، ولا تحديد ولا تدقيق . فلندعها إلى كتب الظرف ، ولنقرأ ما اتخذ الناس له من معنى . يقول

---

(١) اللسان والأساس ، والقاموس والتاج .

الوشّاء: «لا يكون الظريف ظريفاً حتى تجتمع فيه أربع خصال: الفصاحة، والبلاغة، والعفة، والنزاهة[١]» وقد ذكروا أن الظريف هو، من كان إلى ذلك، حسن الوجه، رضيّ الهيئة، متأدباً قد أخذ من العلوم فصار وعاء لها، رقيق الطبع، صادق اللهجة، كاتماً للسر[٢]».

فإذا جمعنا هذه العناصر التي ذكرتها كتب الظرفاء، علمنا أن الظريف هو الفصيح البليغ، الحسن الوجه، الجميل الهيئة، الرقيق الطبع، الصادق اللهجة، النزيه العفيف، ذو الخلق السَمْح الكريم. وقد جمعها ابن الجوزى حين عرّف الظرف فى كتابه «الظراف والمتماجنون» وأضاف إليها عنصراً آخر، هو حلاوة النكتة[٣].

استدراك

١٤ — على أن هذا التعريف لا يدل على الظرف ولا ينبىء عن الظريف؛ لأن الصدق، والرقة، والعفة، وكرم الأخلاق، ووَضاءة الوجه، صفاتٌ عامة يشترك بها الناس جميعاً، لا تدل إذا وُجدت فى شخص على أنه ظريف كظرافنا. فكم من وضىء الوجه ثقيل الروح. وكم من قبيح الصورة خفيف الظل

---

(١) الموشى ج ١ ص ٤١.

(٢) المصدر السابق: ج ١ ص ١٤١.

(٣) الظراف والمتماجنون ص ٣.

وإنما الذى يميز هذه العصابة من الناس ، هو ما تفردت به من صفات لا تجدها عنـد الناس جميعاً . فقد كان لها عناصر بسيكولوجية خاصة ميزتها من غيرها . كرهافة فى العواطف ، واضطرام فى الأهواء ، ولطافة فى الشمائل ، وتتبع الجمال ، والتأنق فى اللباس والطيب والزينة ، والهيام بالرياض والأزهار ، والوَلوع بالطريف الذى لم تعرفه العوام ، واللباقة فى التعبير عن الإحساس والأفـكار ، وزهو حلو يشتد عند المتظرفات ، وعناية بالشـعر الغنائى الغَزَلى الذى يترجم عن العواطف والخواطر ، واحتفال بالحب والهوى ، وهيمان فى إثر اللذاذات والمجون . ولعل هذه الصفات هى التى كانت تحلى ظريفات باريس وظرافها . بل إنها هى نفسها ، لولا ما زاد من تـكلف ظراف باريس ، وما لطُف من طباع ظِراف بغداد .

الظرف والشيوخ

١٥ — ولا بد من الوقوف عند إشارة ذكرتها كتب اللغة . فيها كثير من التحليل النفسى ، ودقة الملاحظة . فقد خصت المعاجم الظرف بالفتيان والفتيات ، ونَفَتْه عن العجائز من الرجال والنساء ؛ وهذه إشارة لطيفة حقاً . فروائح الجنة فى الشباب ، والظرف نفحة من نفحات الجنائن ، وومضة من ومضات الصبا . وهو

أقرب إلى الشباب الحلو وما يحلو فيه من أناقة وترف وزهو وجمال ، منه إلى الكهولة وما فيها من تزمّت ووقار وقناعة وسكون . فالظرف لا يليق إلا بمن كان غضّ الغصن ريّان الفتوّه . وصفاته لا تظهر إلا فيمن كان خفيف الحركات بسام الوجه . ولو أن شيخاً اتصف بها أو تظرف لسمُجَ فى الأعين واستُهجنَ فى القلوب . وليس يعنى هذا أنك لن تجد بين الشيوخ ظرفاء ، ولكن شتان بين غصن وريق رطيب تتدفق فيه الحياة ، وآخر أجرد سليب تتقلّص منه .

الفصل الرابع

— ١ —

سيرة الظرفاء

ظرف الخواص وظرف العوام

١٦ — أقبل الناس على الظرف. فنشأ ظرفان أولونان من الظرف! ظرافة الخواص الأرستوقراطيين، وتظرف العوام الديموقراطيين؛ فقد كانت العامة تقلد الخاصة فى أزيائها وأفعالها ، وتنظر إلى ما تأتى به نظرة إعجاب فينتشر بينها ، كما كان العوام فى باريس يقلدون عصابة قصر رامبو يه تارة ، ورجال المسرح أخرى (١) ثم لا يلبث الظراف أن يتحولوا عن زىّ ما ، عندما يرون أن العامّة قد أخذته عنهم ؛ ومن هنا نتج ميلهُم للتنقل من جديد إلى جديد . ولئن ابتُذِل الظرف عند العامة ، فقد ظلّ ظرف الخواص أنبل ما استعمله العلماء، ومال إليه الأدباء ، وسعى إليه الشعراء . وكان زينة يتزينون به عند الأوداء . ولم يكن الناظر بحاجة إلى طويل وقت وعظيم جهد ليعرف الظريف ؛ فقد كانت دلائله واضحة ظاهرة ؛ لأن المطبوع على الظرف يَهَشُّ له القلب

---

(١) Ch, Lalo, L,Art et la vie Sociale r, 117

ويشهد بحلاوته ، وتهفو إليه النفس وتسكن إلى مجالسته . فإذا تحدّث صبا السامع إلى حديثه ، أو جالس أحسن إلى جليسه . فحركاته تدل عليه ، وجميل مذهبه ينبىء عنه ، وأناقة بزّته تشير إليه . فقد كان من عادة الظراف التقزّزُ والنظافة واللطافة ولبس الزى الخاص بهم (١).

ملابس الظرفاء

١٧ — أما النظافة والتقزز واللطافة فأمور جليلة ذات شأن ، ندركها ونرغب فيها ، ونعلم ما لها من أثر فى المظهر والمنظر والعشرة فما هو زيهم فى اللباس ؟

يقول الوشّاء : « وأحسن الزى عندهم ماتشا كل وانطبق ، وتقارب واتفق (٢) » . وفى هذا ذوق وبراعة ، وفيه تمدن وحضارة ، بل فيه قانون الملابس والأزياء الذى يتبعه مترفو باريس فى هذا العصر . ساقت المدنية ظرافنا إليه ، قبل مئات عشر من السنين فأدركوا أن سر الأناقة فى اللباس هو التطابق والاتفاق ، وإن شئت فقل الانسجام . فلا تنافر فى الألوان ولا تباين فى الأثواب ؛ فإذا لبسوا اتخذوا من الأثواب الجِداد ، ولم يُجيزوا لبس ثوب مغسول مع ثوب جديد ، ولا ثوب دنس مع ثوب مغسول ، ولا بد من اختيار الثياب نقية اللون صافية ، غير مصبوغة بالزعفران

---

(١) الموشى جـ ٢ ص ١٤٧

(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٢٥

ولا مغموسة بالطيب لئلا يشنع منظرها أو يسطع طيبها ، ولأن هذه الثياب الصفر ، وتلك المطيبات من لبس القيان والإماء[١]

فلنرجع إلى كتب اللياقة والأدب Politesse أو كتب فن العيش Savoir Vivre التى ألفت فى هـذه الأيام نجدها لا تخرج فى هذا الباب عما ذكره المتظرفون؛ فهى تقول : « حافظ ما أمكن على المشاكلة بين ألوان الثياب والتوفيق بين أجزائها ، ولا تتخذها مبرقشة بالألوان المتنافرة ، ولا مؤلفة من رث وجديد ولا من طويل وقصير »[٢] ...

فإذا تركنا الجملة وأتينا إلى التفصيل، رأينا ظرافنا يلبسون الغلائل الرقاق ، والقُمُص الناعمات الألوان ، المصنوعة من أرفع ضروب الحرير والكتان ؛ كالدّبيقى[٣] الذى ربما بلغ ثمن الثوب منه مائة دينار ، فإذا خالطه الذهب بلغ المائتين[٤]. وكانوا يلبسون الدرّاعات ؛ وهى جُبَبٌ مشقوقة من الأمام يأتون بها من البروجرد ، وهى بلدة بين الكرخ وهمذان[٥]. ويتخذون

---

(١) الموشى جـ ٢ صـ ١٢٤ .

(٢) آداب اللياقة لمحمد مسعود صـ ٢٦ وانظر كتاب Je sais vivre

(٣) نسبة إلى « دبيق » قرية من قرى دمياط تنسب إليها الثياب المثقلة والمعلم المذهب (أنظر المقريزى) وراجع مقالة الأستاذ « بيكر Becker » عنها في دائرة المعارف الاسلامية

(٤) المسالك والممالك لابن حوقل صـ ١٠١ .

(٥) مراصد الأطلاع جـ ١ صـ ١٤٨ .

الأثواب الملحمة أى المسدودة من قدّام ، من الخز والديباج ، ويستعملون أُزُرَ القصب ، والمبطّنات ، والأردية السعدية المحشاة وطيالس نيسابور ، ومطارف السوس ، وأكسية فارس(١) .

ولن نستطيع أن نصف لك هذه الملابس وصفاً دقيقاً لبعد العهد عنها ، فنحن لم نرها ، ولم ينته إلينا شئ على التفصيل من وصفها ... على أن هذه الثياب كانت أفخر الملابس وأجودها . فكانوا يأتون من كل بلد بما برع أهله فى حوكه ونسجه : من فارس وعدن ومصر والكوفة ونيسابور وهمذان ... كما تحمل المنسوجات فى أيامنا من العراق وفرنسة وانجلترة وغيرها .

فهذه العناية باختيار أجود الملابس والأثواب ، وتلك الرغبة فى انتقاء الزى منسجما ؛ فى ألوانه توافق ، وفى أجزائه تطابق ، لما يثير الدهشة ويدفع إلى الإعجاب . ولئن ابتعدوا عن الصفرة فى الأثواب وتطييبها أمام الناس ، فقد أجازوا لأنفسهم فى الفصد والعلاجات ، ووقت الشراب والخلوات ، ليس الغلائل الممسّكة ، والقمص المعنبرة ، والأُزُرِ المعصْفَرَةِ والأردية الملونة . وربما استعملوها لفُرشهم ، ولبسوها ساعات قصفهم ، وتخففوا بها فى منازلهم . أما الظهور بها فقبيح أمام الناس(٢) .

---

(١) الموشى ج ٢ ص ١٢٥ .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٢٤ .

وكان من تكامل ظَرْف الظريف ، إلى ذلك ، ظهور بزته ونظافتها ؛ فلا يتسخ له ثوب ، ولا يَدْرَنُ له جيب ، ولا ينفتق له كم ، ولا يُرى فى سراويله ثقب ، ومن العيب أن يمشى الظريف بلا سراويل ، أو يمشى محلول الإزار[١] .

أما رباطات السراويل والتكك ، فكانوا يتخذونها من الإبريسم والحرير ، والقطن والخز ، وربما نقشوها بالأشعار ، وزينوها بفرائد الأقوال .

١٨ — أما الخفافُ والنِّعال ، فكانوا يتخيرون منها النعال السود والمختمة ، وربما شركوا أسودها بأحمر ، وأصفرها بأسود . وكانوا يعيبون لبس الخفاف الحمر . أما الجوارب فكانت من الخز والقز والمرعزى[٢] . وقد كان الظراف فى فرنسة حتى منتصف القرن الثامن عشر يتخذون الأحذية السود ولها كعاب حمر . وفى هذا ما يشبه إشراك الأسود بالأحمر عند ظرافنا[٣] .

***

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٤٨ .

(٢) الموشى ج ٢ ص ١٢٥ ، وانظر إن شئت أن تعرف ملابس الغربيين كتاب :

Histoire du Costume en France: Louis Blum, Hach. edit

(٣) أنظر مقالة للآنسة بول بايل فى مجلة كرنفيرانسيا :

Melle Paule Bayle, L. Art au xvIIIe Siécle : Le Costume P. 105 Conferencia No xlv Juillet 1939.

خواتيمهم

١٩ — وكانوا يتختمون بالعقيق والفيروزج وضروب الياقوت؛ كالأبيض المشوب بزرقة كلون السماء[١] الذى يبلغ ثمن الفص منه مائتى دينار[٢]، وكالأحمر الذى يضئ كالكهربا . وكانوا يتجنبون خواتيم الذهب ، لأنها من لبس النساء والصبيان والإماء[٣] .

***

طيبهم

٢٠ — أما طيبهم فعجيب ؛ كانوا يتعطرون بالمسك المقشّر ، المذوب بماء الورد ، ويستعملون العود المعنبر بماء القرنفل المخمّر ، والندّ الذى يتعطر به الملوك ، والعنبرَ المحمولَ من البحرين ، والكافور الموضوعَ على الجمر ، المخلوطَ بعبير المسك . وكانوا يتجنبون طيب النساء ، لأن لهن طيباً خاصا بهن ، سنتنوّه به بعد حين . كما كانوا يتجنبون طيب الصبيان ، ولا يستعملون من الطيب ما كانت رائحتُه شديدةَ السطوع[٤] .

لن نستطيع أن نصف هذه الطيوب . على أن من الممكن الجزم ، مما لدينا من وثائق عن شأن الطيوب وندرتها ، وغلاء ثمنها ، بأن المسك المقشر ، المذوّب بماء الورد ، أو العنبر المستعمل

---

(١) أنظر الجماهر فى معرفة الجواهر للبيرونى .

(٢) التبصر بالتجارة للجاحظ ص ١٠ .

(٣) الموشى ج ٢ ص ١٢٥ .

(٤) الموشى ج ٢ ص ١٢٦ .

بماء القرنفل ، طيوبٌ تفوق عطور « شيرامى » أو « سوار دُبارى » أو «ليس دُفّاله» ، المعروفة اليوم ، شذى وطيباً وثمناً.

***

موائدهم ومطاعمهم

٢١ — فإذا قاموا إلى طعام غسلوا أيديهم بالماء أو الطيب ، وربما مسحوها بالأدهان العطرة لئلا يتمكن الزفر من مسامها[١] . فإذا جلسوا يأكلون ، فلا ضحك ولا ثرثرة .

وقد كانت ملوكُ فرنسة وأشرافُها ، فى القرون الوسطى ، أى فى الحقبة نفسها ، يتكلمون كثيراً وهم يأكلون ؛ يتحدثون عن أقاصيص الحب والحرب والكلاب والعصافير[٢] . وكان ظرافنا يصغرون اللقم ، لا يملؤون بها أفواههم ، ولا يدسمون بها شفاههم . وكانوا يترفعون عن الشره والنهم ، ويتجنبون تدسيم الرغفان ، ولطع أصابعهم بالطعام . ولا يقطرون على أكفهم ، ولا يعجلون فى مضغهم ، ولا يأكلون بجانبىْ أشداقهم[٣] .

وكانوا يتبعون نظامَ الأطباق ، كلُّ لونٍ من طعام فى صحفة خاصة ، يُرْفع طبق فيه ضربٌ من الطعام ويؤتى بطبق آخر ، فيه لون آخر . وربما كان لكل رجل صحفة خاصة

---

(١) مطالع البدور للغزولى ج ٢ ص ٦٦ .

(٢) Funk-Brentano, Société au moyen âge P. 24

(٣) الموشى ج ٢ ص ١٣٠ .

به[١] على النمط الروسى ، ثم التركي، الذى ساد أوربة فى القرن الماضى . وربما جعلوا لكل طعام ملعقة خاصة . بل ذهب بعض المغرقين فى التظرف إلى ما هو أبعد وأعجب . فقد كانوا يتناولون كل لقمة بملعقة ، لئلا يعيدوا الملعقة إلى فمهم بعد أن أخرجوها منه[٢] . وكانوا يتخذون ملاعقهم من الفضة ، ومن الذهب[٣] ، وقد يجعلونها من الزبرجد[٤] ، أو من الزجاج[٥] فى حين ظل ملوك فرنسة وأشرافُها يأكلون بأصابعهم حتى القرن الثالث عشر[٦] أى القرن السادس الهجرى . وقد يختص كل واحد بسكين ، يقطع بها ما يحتاج من الفاكهة واللحوم (آدم متز) .

أما المطاعمُ نفسُها ، فقد تفنّنوا فى اختيار مافيه طيبٌ ولذة: كانوا يرغبون فى الرقاق الملفوفة باللحم ، أو البيض واللحم معا وهو ما يسمونه « البزماوَرْد[٧] » . ويأكلون السمكَ الطرىّ

---

(١) يتيمة الدهر جـ ٢ ص ١٣٠ .

(٢) معجم الأدباء جـ ٥ ص ١٥٣ .

(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٩٨ .

(٤) الجماهر ص ١٦٥ .

(٥) معجم الأدباء جـ ٥ ص ١٥٣ .

(٦) Funk-Brentano, Société au moyen âge P. 22

(٧) تفسير الألفاظ العامية . لتيمور باشا . مجلة المجمع العلمى بدمشق المجلد ١١ ص ٣٢٧ سنة ١٩٢٣ .

وألسنته(١) ، وأدمغة الطيور(٢) ، وكبود الدجاج(٣) ، وألبانَ الظباء(٤) وغيرَها . وكانوا يتجنبون أكلَ القديد ، وحَشْوَ المرق ، والاقترابَ مما خَبُثَ رائحته وظهر نتنه ، كالفجل والكراث والبصل والثوم ، ومما بشع شكله كالجزر والخيار والقثاء ، واجتنبوا أكل الكلوة والطحال ، والثريد والقديد . ثم بالغوا فى تظرفهم ، وإن شئت فقل فى تقزّزهم ، فأعرضوا عن أكلِ كلّ ما فيه نوى . فكانوا يبتعدون عن التمر والزيتون ، والمشمش والعنّاب ، والخوخ والإجّاص . وهذا عندهم من أكل العوام لا الخواص . وما كان الرمان أو التين أو البطيخ لِينفقَ عندهم. وقد حذروا من أكل الحبوب التى تهيج الأرياح وتولد القرقرة والانتفاخ(٥) .

وقد ذكر أبو الفرج خبراً يبين لنا ظرف العوام وظرف الخواص فى الطعام . فقد أرسل محمد بن ذى السيفين إلى عريب يوماً طعاما . فلما رأته أمرت فأُنهب ، وأرسلت إليه طعاما ورقعة فيها : « ياعجمى يا غبىّ ! ظننت أنى من الأتراك ووحش

(١) مروج الذهب جـ٢ صـ ٢٧٩ .
(٢) طبقات الشعراء صـ ٩٨ ، ٩٩ .
(٣) نشوار المحاضرة للتنوخى جـ ٢ صـ ٤٧ .
(٤) مطالع البدور جـ ٢ صـ ٥٩ .
(٥) الموشى جـ ٢ صـ ١٣٠ ، ١٣١ .

الجند ، فبعثت إلىّ بخبز ولحم وحلواء . يا فدتك نفسى ، قد وجّهت إليك زلة من حضرتى ، فتعلم ذلك من الأخلاق ونحوه من الأفعال ، ولا تستعمل أخلاق العامة فى الظرف فيزداد العيب والعتب عليك » فكشف محمد المنديل فإذا طبق ومكبة من ذهب وفيه زبيدية فيها لفّتان من رقاق قد عصبت طرفيهما ، وقطعتان من صدر درّاج مشوى [1] .

***

مساويكهم

٢٢ — فإذا فرغوا من طعامهم غسلوا أيديهم ، وصبوا عليها ماء الورد [2] ، أو العطر ، واستعملوا السواك : لأنه « يبيض الأسنان ، ويصفّى الأذهان ، ويطيّب النكهة ، ويشد اللثة ، ويجلو البصر ، ويشهّى الطعام » وقد وقف أطباء الفرنجة على هذه المزايا التى عرفها ظرافنا ، فقالت مجلة باريس الطبية : « بالسواك تصبح الأسنان بيضاً ناصعة البياض ، واللثة والشفتان جميلة اللون . وإنه ليؤسف ألا تكون عنايتنا بأفواهنا نحن المتمدنين ، كعناية العرب بها [3] » .

وقد استعملوا للمساويك الأراك ، والسكر ، وأصول السوس

---

(١) الأغانى ج ١٨ ص ١٨٥

(٢) أنظر الحضارة الاسلامية لآدم متز ج ٢ ص ١٩٥ .

(٣) آداب اللياقة ص ١٢ .

وجعلوا لها أوقاتاً معلومات ؛ فأجازوا استعمالها بالغَدَوات والعشيات ، فى الصباح والمساء ، على الريق وقبل النوم ، وعند الظهر ، وفى نهار الصوم . وكلما أغربوا فى اتخاذ المساويك كان ذلك أكمل لظرفهم . فإذا استاكوا وضعوا مساويكهم فى الطسوت اللطاف وأباريق الشبه الخفاف ، لحفظها من الغبار . وربما اتخذوا لها لفائفَ من الحرير ، وعصائب من القز ، ليصونوها عن الدنس ، بل ربما اتخذوا لها بعد ذلك كلّه كراسىَ الآبنوس المصدّفة ، والخيزرانِ المشبَّكة ، يجعلونها عليها[1] .

* * *

مجالس شرابهم

٢٣ — فإذا جلسوا للشراب تطيبوا بالمسك والعنبر والغالية . وكانت العادة أن يلبسوا الثياب الموردات والمعصفرات مما حاكى لونه الأزهار[2] . وأن ينثروا الريحان فى جنبات المجلس ، إن لم يكن شرابهم فى بستان أو رياض .

وقد كان الفرس والبيزنطيون يفعلون ذلك[3] . ولعل ظرافنا أخذوا ذلك عن الفرس فيما أخذوا . ثم يسجرون

(١) الموشى ج ٢ ص ١٤١ ، ١٤٢ .

(٢) أنظر مثلا . الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٩٣

(٣) الحضارة الاسلامية لمتز ج ٢ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

المجلس بالند فيتفاوح أرجُه وينتشر عبقه . وعندئذ يركع الإبريق للكؤوس ، ويطوف عليهم ظريف من الغلمان ؛ أو غيداء من القيان ، بأكواب من الفضة والذهب والبلور ، ربما كانت مرصعة بالجوهر[١] ، وربما كانت من أسرى الآنية وأجود الزجاج[٢] . ثم يطربون إلى غناء الجوارى والمسمِعات ، ويشربون على الزهر والجمال ، وينشدون الشعر الغنائى الساحر ، ويتنقلون بمملوح البندق ومقشر الفستق ، والعود الهندى ، والسفرجل البلخى ، والتفاح الذى يحمل من الشام[٣] . وربما شربوا على ضوء القمر[٤] ، وربما شربوا على زهر الرياض يشو به زهر الخدود . ولذّوا بصهباء تبعث الشوق وتنسى الهموم ، وتريح من الأحزان والكُرَب ، فيبولون الهم على قول ابن المعتز ، ويحثون اللهو والطرب ، حتى يثملوا ويسكروا . ولكن كلما استيقظ الساقى من سكرته :

جذب الزّقَّ إليه واتّكا   وسقاهم أربعاً فى أربعِ

---

(١) المحاسن والمساوىء للبيهقى ص ٣٦٢ .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٩٨ .

(٣) الموشى ج ٢ ص ١٣٢ .

(٤) أنظر ديوان ابن المعتز ، وكتاب فصول التماثيل فى تباشير السرور له ، فى آداب الشرب والسكر والمنادمة . والأغانى ج ٧ ص ١٦٨

الفصل الخامس

الحب واللذة

٢٤ — أما الحب فقد حفَل به الظِراف وسعوا إليه ، فكان داءهم ودواءهم ، وكان مقياسَ ذوقهم ، وعنوانَ ظرفهم ، ودليل أدبهم وفهمهم . وليس الظريفُ إلا من أحَبَّ وأُحِبَّ ، فذاق طعم الهوى ومعاناة الجوى .

محاسن الحب

ولقد أقبل الظراف على العشق سِراعاً ، لأن البطالة والترف والشباب تولد فراغاً فى وجود الإنسان وتدفعه أن يملأ هذا الفراغ بالحب . وهذا كان شأن الظِراف . فقد وجدوا فى الحب ما تصفو به الطباع وترق العواطف . فهو خُلُق كريم ؛ وأكرِم بما يهذِّب النفس ، ويحيى القلب ، ويفتق الذهن ، ويشجع الجبان ، ويسخِّى البخيل ، ويطلق اللسان ، ويقوى الحزم ، ويشدّ العزم ، أن يُعنى به ، ويؤبَهَ له . والأديب منهم إذا لم يعشق فليس بأديب ، وإذا لم يذق طعم القلق والأرَق ، ويعرف ما فى الحب من لوْعات وروعات ، فلا يكون لطيفاً .

ولقد وُشِيَ لرجل أن ابناً له أحبَّ ؛ فهشّ وبشّ وسُرَّ ، وقال:

« دعوه ! فإنه بلطف و ينظف و يظرُف[١] » .

محبوبات الظرفاء

٢٥ — وقلّ أن تجد ظريفاً لم يؤثر عنه عشق أو هوى . فقد أحب مطيع « مكنونة » و « ظبية الوادى[٢] » وشاد بمحاسنهما ، وعشق حماد عجرد « جوهراً » ، وفُتن بها[٣] .

وتيمت « سحر » مسلم بن الوليد فقال فيها أرق الغزل وأشجاه[٤] . وعشق ابن المعتز فملك الهوى ، وسأل الناس أن يعذروه ولا يعذلوه .

لا تلومونى على حبّ هندٍ   سحرتنى ، و إنما الحبُّ سحر !

فلما اشتد به الوَلَه نادى :

أَسَرَ الحبُّ أميراً   لم يكن قبلُ أسيراً
فارحموا ذلّ عزيز   صار عبداً مستجيراً[٥]

وأحبّ العباس بن الأحنف « فوزاً » فوقف شعره كله على حبه وغزله[٦] . وشبّب أبو نواس « بجنان » ، وزعم أنه يحبها و يهواها . ولم يخلُ خليفة أو أمير من حب يشغِله ، وحبيب

---

(١) الموشى ج ١ ص ٤٨ .
(٢) الأغانى ج ١٢ ص ٨٠ .
(٣) المصدر السابق ج ١٣ ص ٧٩ .
(٤) أنظر قصائده فى الديوان .
(٥) الديارات : دير مر جرجس .
(٦) الأغانى ج ٨ ص ٣٥٢ وما بعدها و ج ١٥ ص ١٣٥ .

بأسره . كالمعتز والأمين والواثق والمعتمد حتى المأمون والرشيد .

عشاق الظريفات

٢٦ — أما الظريفات فقد ألقينَ بأنفسهن على الحب ، وسعَينَ في البحث عن الحبيب سعياً . فعَشِقْنَ وعُشِقن . فقد هويت علية فتى ظريفاً وكنّت عنه . وكانت تحب أن تراسل بالأشعار من تختصه (١) . وعشقت فضلُ الشاعرة سعيدَ بنَ حميد (٢) . وكانت عُبَيْدَةُ الطنبورية لا تخلو من هوى (٣) . وأحبّتْ عريب ، فتنةُ العصر محمدَ بنَ حامد ، وأبا عيسى بن الرشيد ، وحاتم بن عدى ، وغيرهم (٤) وأخبار هؤلاء كثيرة مبثوثة فى الكتب .

صفات هذا الحب

٢٧ — ونلاحظ أن هذا الحب الذى كان يملأ جوانح الظرفاء ، قوىّ عنيف فياض . وأن العاشق لا يحب الحبيب وحده ، بل يحب كل من يودّ الحبيب : أهله وجيرانه وخادمه . ولو كان بعض هؤلاء مبغضاً إليه ، ينفر منه ويبتعد عنه .

إنى لأهوى جوهرا ... ويُحبُّ قلبى قلبهـا
وأحب من حبى لها ... مَنْ وَدَّهَا وأحبها
وأحب جارية لهـا ... تخفى وتكتم ذنبها
وأحب جيراناً لهـا ... وابنَ الخبيثة ربّها (٥)

---

(١) الأغانى جـ ١٠ صـ ١٦٣ (دار الكتب).
(٢) الأغاني جـ ١٧ صـ ٦ ساسى و جـ ٢١ صـ ١١٧ .
(٣) الأغانى جـ ١٩ صـ ١٣٥ .
(٤) الأغانى جـ ١٨ صـ ١٧٩ .
(٥) الشعر لحماد عجرد .

فانظر كيف أحبَّ جوهراً ، وأحبَّ من حبه لها جارية لها ، وَوَدّ كل من ودها ، حتى ذلك البغيض إليه ، الذى يحول دونه ودون لقائه بها ، صاحبها ، الخبيث وابن الخبيثة . فكل أولئك ، أحباء إلى القلب من أجل الحبيب ، بل أصبح ربْعُها كله حبيباً إليه .

فيا ساكنى أكنافَ دجلة كلُّكم
إلى القلب من أجل الحبيب ، حبيبُ !

فهذا الحب الذى يتعدى الحبيب إلى من يحيط به ، فيجعله جميلا فى العين محبوباً فى النفس ، هو حب رائع يذكرنا بحب الشعراء الابتداعيين Romantiques الذى ينتقل من الحبيب إلى أودّائه ، ثم إلى الأماكن التى زارها والمحالّ التى رآها. ثم هو حب واسع لا حد له ، ولو جُمع حب الناس أجمعين فوُضع فى كفة ، وجئ بحب المحب وحده ووُضع فى كفة ثانية ، لوزن حبهم حبه

لو وزن العاشقون حبهمُ   لكان حبى بحبهم يَزِنُ[1]

بل أين حبّ العالمين من حبه ، إن قطرة واحدة منه تعدل حب العالمين .

إنى أحبك فاعلمى   إن لم تكونى تعلمينا

---

(١) الشعر لمسلم بن الوليد .

حبـا أقل قليـله   كجميع حب العالمينا (١)

ولقد استنفذ الحبيب الحب فى قلبه كله . فلم يُبق لغـيره فضلة ولا محبة .

أنا الذى لم تدَع فيه محبتـُكم

فضلا لغيرك من إنس ولا جان (٢)

وهذا الحب لا يبقى فى القلب ، ولـكنه يخالط كل عضو و كل جارحة لأنه بثّه فى بدنه و روحه .

بثثتُ هوَاكَ فى بدنى و روحى

فألّف فيهما طَمَعًا بيـــأس (٣)

وما زال هذا الهوى يستولى على جسم الحبيب و يأسره ، حتى نزع روحه ، وجعل الهوى مكانها .

سلبتُ روحى وأسكنت الهوىّ بدنى

فصار فيه مكان الروح فى الجسد (٤)

اعترافات الحب

٢٨ — وملاحظة أخرى جديرة بالذكر، هى أن ظرافنا لا يخجلون من التحدث عن حبهم ومغامراتهم . حتى ليخيل إليك تارة أنك ترى عمر بن أبى ربيعـة يقص عليـك أحاديث هواه .

---

(١) الشعر لحماد عجرد

(٢) ابن المعتز ديوان صـ ٥٤ .

(٣) فضل الشاعرة : أغانى جـ ٢١ صـ ١١٧ .

(٤) الشعر لمسلم .

وتحسب مرة أخرى أنك تسمع (اعترافات) مهذبة تذكرك باعترافات (روسُّو) و (غوته) . فابن المعتز يُفضى إليك فى ديوانه بأسرار غرامه ، وسكرات هواه ، فى القصور بين الحسان، وكيف شاق حبيبَه فأتت إليه تسعى يسترها الظلام . وكيف زارها ولم يخش حدّ السيف . وتلمح ، وأنت تقرأ شعر مسلم ، الصلفَ والزهْوَ بأن العيون تمشى إليه ، لجماله وحسنه . ويصف لك آخر كيف رأى حبيبتـه على ظهر الطريق ، فتجاهلته ، فغازلها ، فما تركها حتى فاز منهـا بموعد . وفى هذا كله تشعر بالطرافة وبالحلاوة . لأنها أحاديث فيها من سحر الحب والقلب الـكثير .

ظراف باريس والحب

٢٩ — وهذا كان شأن ظراف باريس ومتظرفاتها أيضاً ، رغبوا فى الحب واشتهوه. فقد اختارت (المركيزة دُ رامبويّه) زوار قصرها ممن كانت تود أن يكونوا عشاقها . وبحث (ڤواتور) عن الهوى فى ذلك القصر وطمع فى اصطياد جوليا ابنة المركيزة. ونادى (لافونتين) — وكان يتظرف — أنه « يحب اللهو ، والحب ، والـكتب ، والموسيقى » . وكانت (مدام دُ سيڤينيه) كعُبيدة ، لا تخلو من عشق ، وتهوى ذات اليمين وذات الشمال. وغامرت (مدام دُ شاتيّون Mme de Chatillon) فى الحب . فخدعت (الدوق دُ بوفور Duc de Beaufort)، وحاولت إغراء

شارل الثانى . وكان مذهب (الآنسة دُ ليسبيناس) : لا مشورة فى الحب ، شأن القيان عندنا . وتلهفت (مدام دو ديفّاند) على الحبيب ، والشيب يضحك منها . ولذّ (لار وشفو كولد) بالحب كثيراً ، ثم قنع بمدام د لافايّيت . ولا محل لاستقصاء أسرار هؤلاء هنا .

وقد بالغ المتظرفات ، عندهن ، فى تطلبهن الحب . حتى أن بعضهن كن يرفضن الزواج الذى لم تسبقه مغامرات الحب والهوى . فهزأ موليير Moliére فى إحدى مسرحياته بهن . تقول مادلون ، فى (المتظرفات الشواذ Ridicules Précieuses) ما معناه : « لا ينبغى أن يتم الزواج قبل مغامرات أخرى . ولا بد للخاطب لكى يكون ظريفاً من أن يبرع فى إظهار أحلى عواطف حبه وأرقها ، وأكثرها هياماً وَوَلهاً . ثم يَلْقى من يحب فى كنيسة أو نزهة أو خلوة ، فيحدثها عن حبه ، فتظُهر الغضب ، فيسعى لمرضاتها ، فترضى . وعندئذ تصغِى إلى أحاديث حبه وهواه . وهذا قريب مما كان يفعله القيان عندنا .

* * *

عشق الغلمان وعشق القيان

٣٠ — ولا بد من التنويه بأن هوى الظراف كان مقسَّماً بين الغلمان والقيان . فطائفة أغرتهم لطافة الغلمان فأحبوهم ، كعبد الله بن

العباس الشاعر . وكالمعتز والمعتمد[١] . وكالحسين بن الضحاك وأبى نواس. وطائفة أخرى آثروا القيان على الغلمان « لتكامل ملاحتهن ، وعجيب شكلهن وبديع دلّهن ، وملاحة سلامهن ، وذكاء روائحهنّ ، وحلاوة كلامهنّ ، وحسن مداعبتهن ، ومليح مراسلتهن ، ومحبوب عتابهن . لا سيما إن شِبْنَ هواهنّ بالغيرة على محبيهن ، والتدلل على متعشقيهن . فهن المالكات القلوب السالبات العقول . »[٢]

وعلى الرغم من معرفة الظراف أن القيان الظريفات شَرَكٌ لإبليس يقتل به ، حتى قال الجاحظ : « ولو لم يكن لإبليس شرك يقتل به ، ولا علم يدعو إليه ، ولا فتنة يستهوى بها إلا القيان لكفاه » ثم يستدرك فيقول « وليس هذا بذم لهن ، ولكنه من فرط المدح . فليس يحسن هاروت وماروت ، وعصا موسى وسحرةُ فرعون ، إلا دون ما يُحسِنّ ... »[٣] أقول ، على الرغم من علمهن بذلك ، فإنهم قالوا : « إن هوى القيان ، على ما فيهن من العيوب ، أسرعُ إلى النفوس ، وأوقع فى القلوب ، وأعلق بالأرواح وأخلق بالنجاح »[٤] .

---

(١) أنظر كتاب الديارات (مخطوط) : دير مرمار ، دير العلث . والأغانى ج ٩ ص ٣٢١ .

(٢) الموشى ج ٢ ص ١٠٤ — ١٠٦ .

(٣) رسالة القيان ص ٧٣ .

(٤) الموشى ج ٢ ص ١٠٢ .

وخلاصة القول إن الظراف حفلوا بالحب احتفالا عظيما ، وكان مذهب المتظرفات فيه يتلخص فى كلمة قالتها إحداهن : «لامشورة فى الحب!»[1] رغم انتشار السحاق عند بعضهن ، واشتهار أمره . فلقد أحببنَ الرجال . وأحب بعضهن بعضاً . وكانت بذل تقول : ألا لا أرى شيئاً ألذ من السحق [2]

* * *

الحب سبيل اللذة الشهوانية

٣١ — على أن هذا الحب الذى تبعه الظراف ، كان لايدعو فى أكثر الأحيان إلى ريبة ، ولا يسوق إلى فجور . لأن العفة من شروط الظرف ، ولا يكمل الظريف فى ظرفه « حتى يكون عن الحرام عفيفاً » .

ولكنّ أناساً ، منهم ظرفاء الكوفة ، استهوتهم اللذة الجنسية . فأصبح الحب عندهم حبا شهوانيا Amour - Sensuel وتهافتوا على هذه اللذة تهافتاً عجيباً . ففريق أطلق لجسده العنان فى التلذذ . فهو لا يبالى ألذ من خلف أم لذّ من قُدَّام . سواء أكان متعة لغيره ، أو تمتع بغيره ، ما دام جسده يلتذ وما دامت حواسه تنعم ... وفى هذا ما يذكرنا بالكاتب الفرنسى (أندره جيد André Gide)

---

(١) مطالع البدور ج ١ ص ٢٧٨ .
(٢) أغانى ج ١٥ ص ١٤٠ .

وفريق ترفعوا عن تلك الدنايا ، ولكنهم تلطفوا فى فهم الحب ؛ ورأوا فيه وسيلة للذة الجنسية . فهم لا يقنعون بالنظرة والبسمة ، ولا يرضون بالحديث والنجوى ، ولا يفهمون للحب العذرىّ معنى . فهو خرافة قد لها الناس بها زمناً . وإنما يريدون القبلة والشمة ، ولمس الأرداف والبطون ، وقطف رمان الصدور ثم ما وراء ذلك . فكانوا يجتمعون فى نواديهم يشربون ويقصفون، ويلهون وينادون :

وكلنا من طرب يطير أو يكادُ
ولهونا لذيذ لم تلهه العبادُ
إن تشتهى فساداً فعندنا فسادُ
أو تشتهي غلاماً فعندنا زِيادُ[1]

فماذا تريد بعد هذا ؟ لقد حفل مجلسهم بما يُشتهى، ولقد شربوا حتى ليكادون يطيرون طرباً . وإن لهوهم عجيب لم تعرفه العباد ، وعندهم بعد ذلك ما تشاء . فإن تشته النساء ، فعندهم النساء ، أو تشته الغلمان ، فعندهم زياد !

وقد يقنعون بالقليل ، ويمهد بعض لبعض السبيل . هذا مطيع ينادى :

ياريم فاشفى كبداً حرّى وقلباً شغفاً

---

(١) الأغانى جـ ١٢ ص ٨٦ .

ونوّليني قبــلة واحدة ثم كفى[١]

ثم يتضرع ويرجو

قبليني سـعاد ، بالله قبله واسئليني لها ، فديتك ، نحله

فيدفع حماد سعاد هذه ويقول لها :

فأجيبي وأنعِمي وخذى البذ ل وأطفي بقبلة منك غله[٢]

أفرأيت إلى هـذا الإغراء . إنه إغراء لطيف قوى ، تستجيب له المرأة . فهو يفهمها أن اللذة متبادلة ، وأنه يلذها إذا قبّلها ... كما تلذه إذا قبّلته ، ثم يكون للقبلة ما بعـدها . فهو يطفىء لهيب الشهوة ، وهي تنعم وتلذ وتروى .

وهذا حمادُ عجرد يحدثك عن ليـلة من لياليه ، فاسمعه ، وتبين هذه الرنة التي تجدها في آخر بيت :

عندنا دهقانة حسّـانة ذات همـيم

جمعت ما شئت من حسـن ومن دل رخيم

في اعتدال من قوام وصـفاء من أديم

لم أنَلْ منها سـوى غمزة كف أو شميم[٣]

أفلا ترى الشهوة تقطر من هذا البيت الأخير ؟ ألا تسمع إلى رنة فيها حسرة وفيها أسف . مسكين حماد ! لقد فاته من

(١) الأغاني ج ١٢ ص ٨٨ .

(٢) الأغاني ج ١٣ ص ٨٦ .

(٣) الأغاني ج ١٣ ص ٧٩ .

هـذه الحسناء ذات الدل الرخيم ، والقوام المعتدل ، والبشرة الصافية ، أشياء كثيرة كان يطمع فيها ، فلم ينل منها سوى غمزة كف وشمة !

دعوتهم إلى اللذات

٣٢ — والحق أن اللذات كانت عند عصبة منهم كل شيء في الحياة : فابن المعتز يجهر ويقول :

فقد كان دأبي جنة اللهو والصبا

وما زلت باللذات والعيش لعّابا [1]

فهل تجد أجمل من قول هذا الأمير الظريف . لقد كان دأبه اللهو ، وكان لعابا بالعيش وباللذات . ولقد سحر الحب ابن المعتز ، وشاقته اللذائذ ، فكهل جسمه ، وضعف عزمه ، وما زال قلبه صبياً ، على قوله ، فكان يصرع عقله بهواه ويردد :

وما العيش إلا لمستهتر　　تظل عواذله في شغب

يهيم إلى كل ما يشتهي　　وإن ردد العذل لم ينجذب [2]

وما كان مسلم بأقل منه صدوفاً عن الشهوات ، لأن العيش عنده في سكرة الخمر وفتنة العيون .

هل العيش إلا أن تروح مع الصبّي

صريع حميا الكأس والأعين النُجْل

---

(١) الديوان ص ٩ .

(٢) المصدر السابق .

فكان هائماً باللذات، لا يصحو ولا يفيق

لم أصحُ من لذة كلّا ولا طرب
وكيف يصحو قرين اللهو واللعب

نفسي تنازعني اللذات دائبة
وإنما اللهو واللذات من أربى

وما عليه من ذلك، وعنده ما يشتهي :

إن شئت غاداني صبوح من الهوى
وإن شئتُ ماساني غبوق من الخمر

وهذا عبد الله بن العباس الشاعر الرقيق، ينحو منحى فلسفياً فيرى أننا عارية فى هذه الدنيا، وأن الدنيا خالية فانية لا تبقى؛ فلم لا ننهب اللذات نهباً قبل أن تفنى أعمارنا ؟

نخذ من الدنيا ولذاتها فإنما نحن بها عارية[1]

أما الظريفات فكن يعطين محبيهن من أنفسهن ما يشتهون، ويمنحنهم من وصلهن مايرغبون. فهذى عريب، وكانت تتهافت على الرجال، لا تستطيع أن تصد نفسها عن الحبيب، فلا تحفل الرقباء ولا تأبه للناس، وتصبر حتى إذا أقبل الليل، لفّت ثيابها وجعلتها فى فراشها، توهم أنها فيه، ثم تفر إلى صاحبها لتنعم بما تشتهى وتريد

---

(١) الديارات : دير قوطا .

قاتل الله عريبا فعلت فعلا عجيبا
صبرت حتى إذا ما أقصد النوم الرقيبا
فتدلت لمحب فتلقاها حبيبا
جذلا قد نال فى الد نيا من الدنيا نصيبا
أيها الظبى الذى تس حر عيناه القلوبا
والذى يأكل بعضاً بعضه حسناً وطيبا
كنت نهباً لذئاب فلقد أطعمت ذيبا[1]

ولما صارت فى قصر المأمون احتالت حتى أوصلت محمد ابن حامد ، وكانت قد عشقته ، ثم احتالت فى الخروج إليه ، وكانت تلقاه فى الوقت حتى حبلت منه[2] .

وهذى دنانير البرمكية كانت ترى أن المرأة بحاجة إلى أن تُباشَر كثيراً[3] ، وهى بذلك تعبر عن حالة نفسية صادقة ، تتراءى عند النساء كثيراً .

وهذى عُبَيْدَةُ أيضاً ، وكانت رقيقة الطباع حلوة الشمائل ،

---

(١) الأغانى جـ ١٨ ص ١٧٩ .
(٢) الأغانى جـ ١٨ ص ١٨٢ .
(٣) الأغانى جـ ١٦ ص ١٣٢ .

لم يعرف فى الدنيا أعطر منها . اشـتهاها الناس ، ورغب فيها الفتيان ، فخلت تـكتها وسمحت لهم[1] لا تدافعهم عن شهوة ولا تقصيهم عن منال ، ولم تبال ، فى سبيل لذتها بأحد

فضل الأديرة على الظراف

٣٣ — ولعل من الواجب أن ننوه بفضل الأديرة على هؤلاء المستهترين من الظراف . فقد وجدت هذه العصبة فى الديارات الممتدة على شاطىء دجلة ، بين النخيل والرياض والبساتين ، كل ماتطلبه وتسعى إليه . من وجوه حسان ، ورواهب وغلمان ، وشراب مبذول ، وطعام موفور ، وغناء طيب . والحق أن النصارى بذلن أنفسهن وأموالهن بكرم وجود ؛ وكتاب الديارات للشابشتى يؤيد ما نقول ؛ فأغرى ذلك الشعراء والظرفاء ؛ حتى أن بعضهم كان كثير التطرح فيها ، كعبد الله بن العباس الشاعر ، وأبى جفنة القرشى . وربما بقوا فيها من أجل غلام أو حسناء .

أقمت بالدير حتى صـــار لى وطناً
من أجله ، ولبست المسح والصـــلبا
وصار شماســـه لى صاحباً وأخاً
وصـــار قسيسه لى والداً وأبا
والله لو ســـامنى نفسي سمحت بها
وما بخلت عليـــه بالذى طلبا[2]

(١) الأغانى جـ ١٩ صـ ١٣٦ .
(٢) الديارات : دير قوطا .

وربما كانت مجالسهم فى الديارات أشد قصفاً وأكثر طربا

وطاب الوقت فى الدير فرابطنا به عشرا
وسقَّيْنا به الشمس وأخدمنا به البدرا
ونلنا كلَّ ما نهوا ه من لذَّاتنا جهرا
تَصَابيْنا وغنَّيْنا وأرغمنا به الدهرا
فتكنا وتهتَّكنا ومثلى هتك السترا (١)

* * *

والأمثلة كثيرة على تهافت الظراف ، أبناء الترف ، على اللذات . ولعل هذا الفصل وحده يحتاج إلى كتاب . وقد أبنا عن ذلك بياناً مفصلا فى مقدمة كتاب الديارات الذى حققناه . وإنما هذه لمح موجزة تبين لك صحة ما ذهبنا إليه في مطلع البحث .

---

(١) الديارات : دير باشهرا .

الفصل السادس

الهـدايا

٣٤ — وحديثنا عن الحب ، يسوقنا إلى التحدث عن الهدايا. فليس من يعنى بها كالعاشقين الظِراف. والحق أنهم كانوا فى هداياهم ظرافا أيضاً. فكان العاشق يهدى إلى المحبوبة الثياب ، والأُزُر، والتكك ، والخفاف ، والعصائب المرصعة ، وخواتيم الياقوت ، ومخانق الكافور ، ومراسل القرنفل ، وما شاءت من مسك وعنبر وماورد ، وعود هندى وندّ ، وحِمْلان وجداء ، وبط وفراريج ، ودجاج وفراخ ، ونبائج منضّدةٍ بالرياحين والفاكهة تتبعها صنوف الشراب ، وتتقدمها الدنانير[1].

٣٥ — وكان الظراف أنفسهم يتهادون . وكانوا يسرون بأشياء ويتطيرون من أخرى . كانوا يتطيرون من الأترج ؛ لأن باطنه خلاف ظاهره . فهو حسن الظاهر حامض الباطن ، طيب

(١) أنظر رسالة القيان

الرائحة مختلف الطعم . ومن السفرجل لأن أول اسمه يبدأ بالسفر . ومن الشقائق لأنها تبدأ بالشقا . والسوسن لأنه يبدأ بالسوء . والياسمين لأن فيه اليأس ، والآس لأنه أياس ، وزعموا أنه مؤاساة .

أما ما أحبوه فالرمان ، لأن معناه أن الوصل قد آن ، والبنفسج ، لأنه فداء النفس . ولقد أكثروا من تفضيل التفّاح ، وكانت المحبوبة ترسل التفاحة إلى حبيبها وعليها أثر عضتها ، وهذه علامة حب . ويقول آدم متز إن ذلك من عادات الرومان[١] . وأعجبوا بالورد ، وجعلوه رسائل المحب إلى المحب ، وربما جعلوا وردة الحبيبة تميمة يشفى العاشق بها . ولكن بعض الظراف تطير منه فسماه (الغدّار) لسرعة زواله وتغيره . وأعجبوا بالخوخ وشكله وشبهوه بالخدود والوجنات ، لأنه يشاركها فى السمرة والبياض ، والأُدمة والتوريد ، والحمرة والزغب ، وهو أطيب من التفاح مَلْثَمًا ، لولا نواه الذى يشمئزون منه[٢] .

على أنهم ما كانوا يفضلون على التفاح شيئًا . يقول الوشاء « ولا يعدل التفاح شىء عند ذوى الظرف . فيه تهدأ أشجانهم

---

(١) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ج ٢ ١٦٨ .

(٢) الموشى ج٢ ص ١٣٨ .

وعنده يضعون أسرارهم . وهو عندهم بمنزلة الحبيب والأنيس ، و بموضع الصاحب والجليس ، وليس فى هداياهم ما يعادله . وهو عندهم رهينة أحبابهم : إلى رؤيته يتطربون ، و برؤيته يستبشرون [1] . »

وكانوا يؤثرون رؤيته على طعامه ، وقد ينقشون عليه الشعر الرقيق أيضاً . رؤيت تفاحة مكتوب عليها :

أنا للأحباب بالسـ ـر وبالوصل رسول
أتهادى فأرق القلـ ـب والقلب ملول

وعلى أخرى :

أنا حمـراء دعونى لمحبٍّ وحبيب

قبل حرب العام كان العراقيون يدخنون جگارات على أوراقها مكتوبة بماء الذهب "قلبي يشتكي الغرام وليس لي من دواء يشفي السقام" وأمثال هذه مما يدل على ظرف أهاليها وصبابة شبابها وعشاقها

(١) الوشى جـ ٢ ص ١٣٩ .

الفصل السابع

آداب اجتماعية

٣٦ — وقد كان لظرافنا آداب اجتماعية تشف عن تهذيب ، وتنبىء عن خلق كريم ، وتومىء إلى كمال اجتماعى عظيم . كانوا لا يزورون أحداً قبل إعلامه ، شأن الغربيين اليوم . وكانوا لا يُداخلون أحداً فى حديثه ، ولا يتطلعون على قارىء فى كتابه ، ولا يقطعون على متكلم كلامه ، ولا يستمعون إذا أسرَّ إلى سره ، ولا يتكلمون فيما حُجب عنهم . وكانوا أمراء مجالسهم أينما وجـدوا لظرافتهم ولطفهم . وكانوا أذكياء لا يجلسون فى مجلس يُنقلون عنه ، ولا يتصدرون فى مكان بحيث يقامون منه . وهم لا يتجشئون ، ولا يتمطون ، ولا يشبكون أصابعهم ، أو يمدون أرجلهم ، أو يحكون أجسادهم ، أو يمسون آنافهم . فإذا تكلم واحدهم فبتؤدة وهدوء ، وبإيجاز وبيان ، لا يعلو له صوت ولا يرشش له بصاق .

فإذا مشوا فى الطريق لا يسرعون ولا يتلفتون . ومن العيب أن يشربوا من ماء الطرقات ، أو يأكلوا مما يُتخذ فى الأسواق ،

ولا يصاحب واحدهم وضيعاً ، ولا يُماشى رذيلا ، ولا يشاتم رفيقاً ، ولا يغمز بإنسان ، أو يسعى إلى سلطان ، ولا يخون عهداً ، أو يخلف وعداً ، أو يماكس بائعاً ، ويشارط صانعاً .

وكان من أخلاقهم قلة الرغبة فى الجفاء ، وحسن المؤاتاة للأوداء ، ومساعدة الأصحاب والخلان . يبشرون بمن لقوا ، ويتفقدون من فقدوا ، ويعينون بأموالهم الإخوان ، ويرحبون بالضيفان ، ويصفحون عن المسىء ، ويبجلون الكبير ، ولا ينسون الترحيب بالصغير[1] .

ذلك طرف من آدابهم ، فيه من آداب الإسلام وآداب الحضارة ، قايسه بآداب اللياقة فى الغرب ، تر ما كان عليه ظرافنا من نبل وكمال وتهذيب .

---

(١) أنظر الموشى جـ ٢ ص ١٤٦ — ١٤٩ .

الفصل الثامن

— ٢ —

سيرة المتظرفات

رأيت فى الفصول السابقة ما كان عليه الظراف فى معاشهم ولهوهم وعاداتهم، فلنمض إلى الظريفات ، ولنذكر ما أهملناه فى تلك الفصول ، ولنبين ما كنّ عليـه من ذوق ونعومة ودلّ ، وما كن يصْنَعنه للتظرف والتجمل والتزين ؛ هـذه الأشاوى التى لا يعرفن غيرها ؛ لأنهن ميَّالات إليها بغرائزهن ، راغبات فيها منذ نشأتهن ، ولأن عملهن الإرضـاء كما يقول « فينيلون Fenelon »[1] .

الأزياء بين الابتكار والتقليد

٣٧ — وقبل أن نبين أزياءهن يجدر بنا أن نذكر ما كان لهذه الأزياء من أثر فى العامة وأهل التظرف منهم . فقد كانت ملابسهن (مودة) يقلدها النساء . والمودة على قول (تارد) فى كتابه (قوانين التقليد Les Lois de L'imitation) لابدلها من مخترعين أو واضعين : Initiateurs ، ومن مقلدين متبعين :

---

(١) أنظر رسالته فى تهذيب البنات :
Fenelon, Traité de L' Education des Filles.

Imitateurs . فكانت الظريفات هن المخترعات ، وكانت نساء العامة وبقية المتظرفات هن المقلدات . فما تكاد أميرة أو ظريفة أو قينة ، تخترع زياً ، حتى تسارع إليه غيرها ، فيعم وينتشر ، لأنه زى جديد ، والجديد هو الجميل .

ملابسهن

٣٨ — أما ملابسهن فكانت مما ندر ونخر وغلا ثمنه وحسن حوكه . فما شئت من أردية رشيدية تارة وطبرية تارة ؛ وما أردت من شروب[1] فى أوساطها الزنانير ، ومن قصب ملوّن بألوان مختلفات ، وحرير موشى بالذهب ، ومقانع فاخرة من نيسابور ، وأزر رفيعة من خراسان ، وسراويلات بيض ، ومعاجر سود مسنبلات .

ألوان الملابس

٣٩ — وكانت الألوان التى يرغبن فيها تدل على ذوق ونعومة ؛ فكن يعزفن عما صبغ منها صبغاً ، ولا يلبسن من الثياب الأصفر والأسود والمورد والأخضر والأحمر ، إلا ما كان جنسه التزريق والخضرة ، والتوريد والحمرة ؛ يتخذن كل أولئك من اللاذ والحرير والديباج والقز والخز والوشى ، مما كان اللون من أصله غير مكتسب . وكان اللون الأسود دليل الترمل والحداد ، وكذلك اللون الأزرق ؛ فقد كانت الأرامل يلبسن الحداد الأزرق . فى حين كان اللون الأحمر ، آية الفرح والطرب

---

(١) الشروب ، واحدها شرب وهو ضرب من الثياب .

(٢) المعاجر واحدها معجر وهو ما يلتف به .

والسرور . وكن يخترن منه ما راقهن ، لأن الشديد الحمرة والتوريد من لبس النساء النبطيّات والإماء . أما البياض فكان لباس المهجورات ؛ وربما لبسنه للتسلب والحزن أيضاً . فقد ذكروا أن وصيفاً لما أمر بإحضار جوارى المتوكل بعد قتله ، حَضَرْنَ ، وعليهن الثياب الملونة والمذهبة والحلى . وقد تزين وتعطرن ، إلا محبوبة ، فقدجاءت متسلبةً، عليها ثياب بيض غير فاخرة ، حزناً على المتوكل[١] . واللون الأبيض هو الذى اتخذه أهل الأندلس للحزن والحداد[٢] . ولعل فى الهجر عند أهل بغداد ما يستدعى الحزن ويوجب الحداد .

ولقد رغبن فى الوشى رغبة شديدة ، فانتشر بينهن . وكانت زبيدة ، وهى من الظرافة بمكان ، تلبسه دائما . حتى صنع لها من الوشى الرفيع ما بلغ ثمن الثوب منه خمسين ألف دينار[٣] . ولبس الحرير الموشي بالذهب زى فنى ، وزبيدة تذكرنا (بمارى ليكزنسكا Marie Leczinska) زوج لويس الخامس عشر فقد كانت تلبس أثواب الوشى بالذهب دائماً[٤] .

---

(١) أخبار الخلفاء للسيوطى ١٤٠ ، والأغانى جـ ١٩ صـ ١٣٣ .

(٢) نفح الطيب جـ ٣ صـ ٢٤٥ ، وانظر شعر ابن شاطر السرقسطى فى ذلك .

(٣) المسعودى جـ ٢ صـ ٣٦٦ .

(٤) Mme Dussane: Marie Leczinska, Reine mal mariée. Conferencia No V Février 1939 P, 240.

وكن يتزملن برداء من حرير يستر أثوابهن ، ويتمنطقن بمنطقة من ذهب . وكان بعضهن يتنقبن . وقد ذكر أبو الفرج أن متيم الهاشمية كانت لا تخرج إلا متنقبة ، وأنها أول من عقد من النساء فى طراف الإزار زناراً وخيط إبريسم ، فكانت تجعله على رأسها فيثبت الإزار ولا يتحرك [١] .

وقد رغبن فى جعل الأكمام والجيوب مفتوحة واسعة . وقد تبدو سواعدهن وصدورهن وما يضعنه من حلي وتعاويذ بين نهودهن .

زركشة الملابس بالشعر

٤٠ — وكثيراً ما كنّ يعمدن إلى زركشة الملابس . وزركشة الملابس هذه شكل من شكل الفن [٢] . وقد وجدن فى أشعار الغزل مادة زينة وتزويق فكن ينقشن هذه الأشعار الحلوة على العصائب ، وذيول الأقمصة ، وطرر الأردية ، وعلى الأكمام والقلانس والمناديل ، وربما كتبنها على النعال والخفاف . وقد يجعلنها على جباههن وخدودهن بالمسك والعنبر والغالية [٣] .

وليس أجمل من أن ينظر الإنسان إلى الحسناء الظريفة ، فينزه مقلته فى رياض محاسنها ، يرعى فى وجهها الحسن ، ويطارب المرشاقة فى الجسم ، ويعجب باللطافة والأناقة ، ويلذ طرائف

---

(١) الأغانى ج ٧ ص ٣٠٢ (دار الكتب) .

(٢) أنظر : Lalo : L' Art et la vie Sociale, P, 119.

(٣) الموشى ج ٢ ص ١٦٢ .

الغزل الحلو الرقيق . وعندئذ يجدها ظَرفا للظرف، ومخلَبة للعقل ، وفتنة للفؤاد .

وكانت هذه الأشعار تدور حول الحب والحبيب ، والهجر والوصل ، والشكو والصفو ، والرقة والقسوة ، والتحنان والتهيام ، واللوعة والصبابة ، والفرح والسرور ، والشوق والدلال ، والصد والجوى ، وما يجده المحبّونَ الظرفاء ، والمحبوبات الظريفات من انفعالات نفسانية وخطرات . ولقد رأيت أن الحب كان وسيلة من وسائل الظرف ؛ فلم يكتفوا بحبهم هذا ، بل أظهروا آثاره وأوضحوا دلائله . وكانت هذه الأشعار مرآة العواطف ، ومظهراً لداء العصر (الحب) .

طائفة من شعر الزركشة والتزويق ومايدل عليه

٤١ — ولا بد من أن نسوق إليك طائفة منتقاة من هذا الشعر . ذكر الماوردى قال : رأيت جارية ، ونحن عند محمد ابن عمرو بن مسعدة ، لم أشك أنه عاشق لها لما رأيت من حركاته إذا نَظَرَتْ ، وسروره إذا نطقت ، وتهلله إذا غنت . وكانت فوق وصف الواصف من الحسن والجمال . وعليها قميص موشّح ، ورداء معيّن . وفى وشاح القميص :

أغيبُ عنك بوُدٍّ لا يغيرهُ
نأىُ المحل ولا صرف من الزمن

تعتَلُّ بالشغل عنا ما تكلمنا

الشغل للقلب ، ليس الشغل للبدن !

وعلى طراز الرداء :

أقل الناس فى الدنيا نصيباً محب قد نأى عنه الحبيب (١)

وقد تستشف من وراء هذه الأشعار ما فى ضمير المرأة ؛ لأن اختيارها دليل على قلبها . ولا شك ان هذا الشعر ، بعد ذلك كله ، خدعة من خدعهن ، وإغواء من إغوائهن . فهذى بنان جارية الخيزران ، تشكو طول البعد ، ونفاد الصبر ، فتكتب :

ليس بى صبر ولا لى جلد قد نفى حبك عنى جلدى

وراهى ، جارية الأحدب أولا ، وجارية إسحاق أمير الغناء أخيراً ، تعلن حر الهوى فى فؤادها ، واضطرام الجوى فى جوانحها ، فتكتب على وشاح قميصها (٢)

إذا وجدت لهيب الشوق فى كبدى

أقبلتُ نحو سقاء القوم أبتردُ

هبنِى طفئتُ ببرد الماء ظاهره

فمن لحر على الأحشاء يتقد ؟! . .

---

(١) الوشى جـ ٢ ص ١٦٨ .

(٢) الوشى جـ ٢ ص ١٦٩ .

وتلك جارية ظريفة أخرى ، تلتمس رداء كله مسك ، فتكتب عليه ، تستعطف وتبكى :

يا مالكاً عذبنى بجوره إذ ملكا
رفقاً بمملوكك ما يحل ذا الظلم لكا

العصائب

٤٢ — أما ما نَقَشْنه على العصائب فكان أملح وأظرف. والحق أن العصائب نفسها كانت آيات فنية رائعة فيها الذوق والجمال . وكانت عُليّة بنت المهدى قد ابتدعت هذه البدعة الحسنة ؛ فقد كان فى جبينها فضل سَعَةٍ تسمُج به . فأرادت أن تخفيه ، فاتخذت العصائب ، وكللتها ، وهى بنت الخليفة ، بالدر والجوهر . فأحدثت شيئاً ما رؤى فيما ابتدعه النساء أجمل منه[1]. وقلدتها الظريفات ، واتخذت العصائب الرفيعة ، يكلّلْنها بالجوهر مرة، وباللؤلؤ تارة . وينقشن عليها الشعر بالذهب طوراً. ولعلك تلاحظ كيف أخضع الظريفات (المودة) والفن فى سبيل إخفاء العيوب . ونحن نجد ما يشبه هذا فى فرنسة فى أواخر القرن الحادى عشر . فقد كانت الملكات يُخفين عيوبهن بطرق كهذه ، فيتخذن القلانس ليخفين عظم رؤوسهن ، أو الدنتيلّات ليسترن ضيق صدورهن .

حدّث على بن الجهم قال : حضرت مجلس الظرفاء ،

---

(١) الأغانى جـ ٩ ص ٦٣ (دار الكتب) .

فخرجت علينا جارية كأنها تمثال وعليها عصابه قد أرسلت لها طرفين ، فى صدرها مكتوب .

من يكن صَبًّا وفيًّا فزمامى فى يديه
خذْ مليكى بعنانى لا أنازعْك عليه

فوثب ابن الجهم حتى أخذ بطرفَىْ العِصابة وقال : « أنا والله صب ، وأوفى خلق الله لِحبّ[1] . . ! »

وقد ذكرتُ أن اختيارهن دليل على رأيهن وما يشتهين . وفي المثال السابق والأمثلة اللاحقة دليل على ذلك . وقد ذكروا أن طَرَفَةَ جارية النطَّاف كَتَبَتْ على عصابتها بالذهب « ليس فى الحب مشورة[2] ! » وهذا ينبىء عن ميلها ، ويصح أن يكون معبراً عن مذهب الظرف فى الحب . ويذكرنا هـذا القول ، بالآنسة دُ ليسبيناس Melle de Lespinasse ، صاحبة البهو الأدبي المعروف . فقد كانت تقول : « ليس أقرب إلى العقل من التلذذ فى الحب » . وكتبت عنان باللؤلؤ : « إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت » ، وهذا يومىء إلى سيرتها و رغبتها فى التلذذ . وكتبت فرحة جارية ابن الجهم بالريش : « من صبر ظفر[3] » .

---

(١) مطالع البدور ج ١ ص ٢٧٨ .
(٢) الموشى ج ٢ ص ١٧١ .
(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٩ .

القلانس

٤٣ — وكن يتخذن القـلانس اللطاف ، يضعنها على رؤوسهن للتزين ، ويجعلنها من الديباج فى أغاب الأحايين ، وينقشن عليها الشعر الحلو الرقيق . فقد كتبت (علل) جارية محمد بن المأمون على قلنسوة لها من الديباج :

ما يمل الحبيب طول التجنى لبلائى به ، ولا الصد عنى ؟

ونقشت « بنان » على قلنسوة جارية لها ، وكأنها كانت رسولا إلى الحبيب .

إن كنت خنتُ ولم أضمر خيانتـكم
فالله يأخـــذ ممن خان أو ظلمـا
سماحـة من محب خان صاحبه
ما خان قط محب يعـرف الـكرما [1]

التيجان الذهب

٤٤ — وقد يضعن التيجان المـكللة بالجوهر والياقوت والذهب . وربما صِغْنَ الذهب على شكل النرجس ، وشابوه بالفضة ، وجعلوه حول التيجان [2] . وكانت هذه التيجان من أظرف الزينة . وكانت الظريفات المترفات وجواريهن يرغبن فيها . وقد أولمت « حمنة » مرة للمأمون وليمة ، فأتاها ، فغنته

(١) الموشى ج ٢ ١٦٩ .
(٢) الطبرى ج ١٠ ص ٥٤٢ .

ثلاث قينات حسان توّجن رءوسهن بتيجان ذهبيـة مـكلّلة بالجوهر[١] .

الزنانير والخفاف

٤٥ — أما الزنانير ، فما كن ليرغبن فى العراض منها . وكن يتخذنها ليبـدو هيَف خصورهن ودقتها ، وبروز أردافهن وعظمها . وكان ذلك يستملح منهن . وربما زينها بالأشعار . أما الخفاف فـكن يجعلنها من الديباج ، ويزوقنها بالجواهر والأشعار . وقد يجعلن النعال من الفضة[٢] . وكانت زبيدة تزوق الخفاف بالدر والجوهر[٣] .أما الشعر الذى كن ينقشنه عليها فهو طريف لطيف . كتبت ظريفة على نعلها بالذهب :

لم ألق ذا شجن يبوح بحبه إلا حسبتك ذلك المحبوبا
حـذراً عليك ، وإننى بك واثق ألا ينال سـواى منـك نصيبا[٤]

عود إلى شعر الزركشة

٤٦ — وقبل أن ننتقل إلى أمور أخرى ، يجدر بنـا أن نذكر أن الأشعار التى كن ينقشنها ، كانت فى أحايين كثيرة وصفاً لهن ، وإعلاناً عنهن ، فقد ذكر الوشّاء أنه رأى جارية كأنها فلقة قمر ، خارجة من أحد الهياكل ، فى كنيسة مار

---

(١) الاقليدى ص ١٠٣
(٢) الموشى ج ٢ ص ١٨٢ .
(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٥١٧ .
(٤) الموشى ج ٢ ص ١٨٢ .

ماريم فى بغداد ، وفى وسطها زنّار عليه بيتان .

زنّارُها فى خصْرِها يطربُ   وريحُها من طيبها أطيبُ

ووجهها أحسن من حلْيها   ولونهـا من لونهـا أعجب

وكانت شادنُ جاريةُ حنث قيمةُ جوارى المأمون تضع وقاية تجمع بين ذوائبها ، وعليها :

بيضاء تسحب من قيـام فرعها
وتغيب فيـه وهو جَثْلٌ أسْحَمُ
فـكأنهـا فيه نهـارٌ مُشْرِق
وكأنه ليـلٌ عليهـا مظلمُ (١)

شعورهن

٤٧ — وننتقل إلى التـكلم عن شعورهن . فقـد كن يُعْنَيْنَ بها ويبذلن جهدهن فى التصفيف والتسريح والترجيل. وكانت عريب تدع جواريها يغسلن رأسها ، ويسرحن شعورها ثم يضعن فيه المسك والعنبر (٢) . وكان عند جعفر بن يحيى ، وزير الرشيد ، جارية خاصة تمشط شعور جواريه ، وتزينهن له كل ليـلة (٣)

---

(١) الموشى جـ ٢ صـ ١٧١ — ١٧٣ .

(٢) الأغانى جـ ١٨ صـ ١٨٧ .

(٣) إعلام الناس للاتليدى صـ ٨١ .

وكن يرسلن شعورهن ضفائرَ وذوائبَ وراء ظهورهن ، أو يجعلنها جدائل تتدلى على أكتافهن . وعندما أحب الناس الغلمان تشبهت القيان بهم ؛ فقصصن شعورهن ، ولبسن الملابس القصار ، وأبرزن أردافهن وسُمين « الغلاميات » . وهذا ما فعلته زبيدة للمأمون لما شاع حبه للغلمان (١) . وكن يُزَرْفِنَّ أصداغهن ؛ فقد رؤى المأمون يوم الشعانين ، وبين يديه عشرون وصيفة مزنرات ، قد تزينَّ بالديباج ، وزَرْفَنَّ الأصداغ . فقال أحمد ابن صدقة فيهن :

ظبــاء كالدنانير ملاح فى المقاصـير
جلاهُنَّ الشعانين علينا فى الزنانير
وقد زرفَنَّ أصداغاً كأذناب الزرازير (٢)

وربمـا جَمَعْنَ الشعر بالجُمَّة السُكَيْنِيَّة ، نسبة إلى سكينة بنت الحسين (٣) . وهذه الجمة شكل من (التواليت) كان يُستملح . وكانت العباسة أخت الرشيد تفعل ذلك ؛ وتضع فى مقدم الجمة طرَّة مرصَّعة بالماس على شكل طائر عيناه من الزمرد وفى أجنحته فصوص من الياقوت مرتبة بين فصوص الماس .

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٥١٧ (بهية) .
(٢) الديارات : دير الأعلى وانظر الأغانى ج ١٩ ص ١٣٨ .
(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٧٧ .

طيبهن

٤٨ — أما الطيب فكان لهن طيب خاص . فكن لا يتطيَّبنَ بما يتعطر به الظراف . وكان لهن الكافور والقرنفل والزعفران ، والعطور البرمكية ، وعطور الأزهار كالبنفسج والزنبق والبان[١] . وكانت صناعة العطور التى تستخرج من الأزهار مزدهرة فى إقليم سابور ، وهى تشبه الصـــناعة التى اختصت بها (الريفييرا) فى فرنسة[٢] .

الجواهر والحلى

٤٩ — وكان زيهن فى الحلى لبس مراسل الكافور ، ومخانق القرنفل ، والقلائد الذهبية . وكُنَّ يحملن المعاذات المخرَّمة ، خوف العين . ويتَّخِذْنَ السَبَج اللطاف والحك والكوهر والبلور النقى ، ويتخذن اللؤلؤ والحب الأحمر والكارما الأصفر ، وأصناف الياقوت والجوهر[٣] . أما خواتيمهن فمن فصوص الزمرد والياقوت ، وكن يبتعدن عن خواتيم الفضة والعقيق .

---

(١) الموشى ج ٢ ص ١٢٧ .

(٢) الحضارة الاسلامية لآدم متز ج ٢ ص ٣٠٥ .

(٣) الموشى ج ٢ ص ١٢٨ . وانظر الجماهر فى معرفة الجواهر ، للبيرونى ، تجد وصفاً دقيقاً لهذه الضروب من الجوهر وراجع مقالتنا عن « جواهر الخلفاء العباسيين » فى مجلة المجمع العلمى العربى ج ١٢ ، سنة ١٩٤١ المجلد السادس عشر .

وقد تفنن فى التزين بالحلى ، و برعن فى إغراء الرجال .
فكن ربما جعلن الجواهر فى صدورهن ، بل ربما جعلنها بين
نهودهن . وأكرم بجواهر تزهو بين جواهر ! حدث الحسين
الخليع قال : « فرأيت جارية تتثنى ، واسعة العينين ، أزَجّة
الحاجبين ، مفتوحة الجبين ، عليها قميص جُلَّنارى ، متقلدة
خرزاً من الذهب ، والجوهر يزهو بين نهديها ، وعلى صحن
جبينها طرة ، وقد غلب عليها الطيب[1] . »

وكان الخلفاء والظرفاء يتقربون بالجواهر والحلى إلى
الظريفات . فقد اشتُرى للرشيد جوهر بمائتى ألف دينار فوهبه
لدنانير البرمكية[2] . وأغضب الواثق فريدة يوما فاسترضاها بحُق
فيه عقد جوهر ما رؤى مثله لخليفة[3] .

وقد بلغ من إعجاب الظريفات بالجواهر ورغبتهن فيها أنهن
اتخذن ثياباً كلها من الدر ، كما فعلت زبيدة ؛ فقد أمرت أن
يُتَّخَذ لوصائفها ثياب من الدرّ المثقوب بالتصليب[4] ولم يسمع عن

---

(١) الاتليدى ص ٥٧ .
(٢) المحاسن والمساوىء ص ٥٤٤ .
(٣) عيون التاريخ لابن شاكر (مخطوط) ج٦ سنة ٢٣٢ .
(٤) الجماهر فى معرفة الجواهر ص ٥٨ .

امرأة أنها فعلت فعل زبيدة هذه من قبل ولا من بعد .

* * *

احتفالهن بالأزهار

٥٠ — وأمر آخر ذو شأن هو احتفالهن بالأزهار. فكن يتزين بها ، يجعلنها أكاليل على رؤوسهن ، ويضعنها فوق نهودهن ، وقد أعجبوا منها بالبنفسج والورد خاصة . وكانت متيم يعجبها البنفسج جداً . وكان عندها آثر من كل ريحان وطيب ، حتى أنها من شدة إعجابها به كان لا يكاد يخلو من كمها ، ولا تراه إلا كما قطف من البستان(١) .

ولقد رأيت كيف كانوا يؤثرونه فى الهدايا على غيره من الزهر ، ويقولون إنه دليل الود والحب .

أهدت إليه بنفسجاً يسليه ... تنبيه أن بنفسها تفديه

فارتاح بعد صبابة وكآبة ... ورجا بحسن الظن أن تدنيه

وأما الورد ، فقد أفرطوا فى نعت حسنه وتفضيله . فكانوا يفرشون المجالس بفرش مورّد ، ويلبسون الثياب من لون الورد ، ويتهادون الورد ، ويشربون على رائحته وشكله ومنظره . كل

---

(١) الأغانى ج ٧ ص ٣٠٦ .

ذلك لصفاء لونه ، وسطوع طيبه ، ونعومة منظره[1] .

* * *

التزين وفن التجمل

٥١ — نستنتج ، بعد هذا كله ، أن ظريفاتنا سعين فى التزين الفنى لإظهار محاسنهن وإخفاء عيوبهن . فلبسن الوشي المثقل بالذهب ، وتحلين بالجواهر واليواقيت والدرر ، وتعطرن بعطور الأزهار ، وفتن عيون المحبين بالأشعار ، وزركشن ملابسهن ، وزوقن ما يحيط بهن .

على أن كل ما ذكرنا ليس بشىء أمام تجملهن . فقد ازدهر فن التجمل أى ازدهار . وكان فيهن من تنقطع إلى التزين والتجميل ، وقد مر بك أنه كان لجعفر بن يحى امرأة تزين له جواريه كل ليلة ، ومثل هذه كان يوجد فى كل قصر . وليس أحب للمرأة من التجمل ، ولو كانت جميلة . ولا تخلو واحدة من ميل له ومحبة . لا سيما إذا كان وسيلة لإظهار مفاتنها وإبداء محاسنها . وقد برع النخاسون ، ونبغت القيان ، فى التجميل . وها أنذا أنقل لك نصاً من رسالة لابن عبدون البغدادى تبين لك ما بلغنه فيه من براعة ومهارة. يقول : « وكم من سمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبة ! وكم جعلوا العين الزرقاء كحلاء ، وحمّروا

(١) أنظر مقالنا عن « الورد والخلفاء العباسيون » فى المقتطف : الجزء الثانى من المجلد الثالث بعد المائة يوليو ٩٤٣ .

الخدود المصفرة ، وسمنوا الوجوه المقعقعة . وكبروا الفقاح الهزيلة ، وأعدموا الخدود شعر اللحى ، وأكسبوا الشعور الشقر حالك السواد ، وجعدوا الشعور السبطة ، وبيضوا الوجوه المسمرة ، ودملجوا السيقان المعرقة ، ورطّلوا الشعور المرطة ، وأذهبوا آثار الوشم والجدرى والنمش والحكة ... وطولوا الشعور بوصلها من أطرافها بشعور من جنسها . وكانوا يزيلون روائح الأنف بالسعوط بدهن البنفسج والنيلوفر ونحوهما . ويجلون الأسنان بالسواك بالأشنان والسكر وسحيق الصينى أو الفحم أو الملح المدقوق . وكانوا يزيلون الشعث فى أصول الأظفار بغسلها بالخل والعسل ، أو دهن الورد واللوز المرّ .

« وكن يخضبن حواجبهن وأطرافهن ، ويصبغن بصبغ أحمر شفاههن[1] . فإن كانت الجارية بيضاء ، فبالخضاب الأحمر ، وإن كانت صفراء فبالأسود . ويجرون الصناعة مجرى الطبيعة فى كشف الضد بضده[2] . »

أرأيت إلى هذا التجميل . إنه فن قائم بنفسه ، لا ينقصه شىء . وماذا يعوزه وقد حوى كل شىء ، واحتال على كل شىء

---

(١) مختصر تاريخ العرب لمير على ص ٣٨٩ .

(٢) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ج ١ ص ٢٧١ ، نقلا عن رسالة لابن عبدون البغدادى المتطيب مخطوط رقم ٤٩٧٩ بمكتبة برلين

فجعل السمراء صفراء ، والعين الزرقاء كحلاء ، وحمر الخدود ، وسمن الوجوه ، وصبغ الشعور . . حتى الشعث فى أصول الأظفار أزالها ... والحواجب خضبها ... ولا بد أنك لاحظت هذه العناية الكبرى فى التحايل على إظهار الجمال و إخفاء العيوب و إبداء المفاتن . ولعمرى إن هـذه العناية لا تقل عن عناية النساء بالتجمل فى القرن العشرين . فلم يدعوا شيئاً إلا جملوه ، من الشعور إلى السيقان ، ومن الهزال إلى السمن ، ومن القباحة إلى الصباحة . فلا غرو إن كان للمتظرفات حظ وافر من الجمال ؛ ولا عجب إن فتن القلوب وأسرن العقول ؛ فتهافت عليهن الخلفاء والأمراء والشعراء والأدباء .

الفصل التاسع

أدب الظرفاء

خصائص هذا الأدب

٥٢ — لا بد ، قبل أن نفارق ظرافنا ، من أن نستمع إلى أشعارهم ومراسلاتهم . وسترى فى هذه الأشعار ما رأيته فى حياتهم من يُسرٍ وطرافة وخفَّة وجمال وزَرْكشةٍ وتميق . لأن سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع ، ودماثة الشعر قد تكون بقدر دماثة الخلق ، ورقة الكلام أكثر ما تأتيك من اللطيف الظريف ، أو الترف الذوّاق ، أو الغَزِل المتهالك . وأصحابنا كانوا مترفين ، ظرفاء ، غزلين . فإذا قرأتَ شعرهم ، رأيتَ ألينَ الكلام ، بأرشقِ الأوزان ، وآنقِ الألفاظ .

الزركشة والتزويق

وقد دفعهم حب التزويق ، إلى زركشة الشعر بالألفاظ الحسان ، والصيغ الرشيقات ، والرغبة فى البديع ، وما فيه من جناس ومقابلة واستعارة وطباق .

المعانى الغريبة والعواطف المرهفة

وساقهم حبُ الطريف إلى صيدِ المعانى اللِّطاف . وقد تراها غريبةً عنك ، وقد تراها بعيدةً منك ، فيها رهافةٌ فى الشعور لا توصف ، ونعومةٌ فى الحِسّ لا تُعْرَف . ولكنها ،

على كل حال ، حسنةٌ فى المسمع ، لطيفةُ الموقع فى القلب . ولقد ُعنوا أيضا بتنميق معانيهم بالصور الحسية تارة والمعنوية أخرى وصبغوها بأصباغ شتّى وألوان مختلفات ، ولم ينسوا الطبيعة ، فلهم فيها أوصاف فاتنات ، فهى تشوق وتروق . وبذلك زوّقوا المبنى ولم يهملوا المعنى .

الصراحة والانطلاق

ورغبتهم انطلاقُهم من القيود إلى الجهر بعواطفهم ، والتحدثِ عن ذكرياتهم ، والاعترافِ برغباتهم ، وتبيانِ ما تهفو إليه نفوسُهم ، من الشهوات والملذات ، وما تشمئز منه من السدود والقيود .

وخلاصة القول أن أدبهم كان صورة لألوان من العواطف والانفعالات الوجدانية الغريبة فى بعض الأحايين ، واللطيفة فى أحايين أخرى التى كانت تهيمن على نفوسهم ، ولما يصحبها من تغيرات جثمانية ظاهرة ، بألفاظ رقاق ناعمات ، تنسجم مع تلك العواطف ، ذات موسيقى فيها لين ورقة وعطف . وكان أيضاً كحياتهم نتاجَ تهذيب ، وثمرةَ حضارة ، وجَناءَ لهو ، وربيعَ ترف .

وهاك نماذج منه تبين ما ذهبنا إليه :

مغازل أُشُر

حسبي وحسب الذى كلِفتُ به ... منى ومنه الحديثُ والنظرُ
أو عضّةٌ فى ذراعها ولها ... فوق ذراعى من عضّها أثر
أو لمسةٌ دون مِرْطها بيدى ... والبابُ قد حال دونه الستر
والساقُ برّاقةٌ مخلخلها ... أو مَصُّ ريق وقد علا البهر
واسترخت الكفُّ للعراك وقا ... ات إيهِ عنّى، والدمع منحدر
إنهضْ فما أنت كالذى زعموا ... أنتَ وربى مغازلٌ أشِرُ
قد غابتِ اليومَ عنك حاضنتى ... واللهُ لى منك فيك ينتصر
يارب خذْ لى فقد ترى ضَرَعى ... من فاسقٍ جاء ما به سُكر
أهوى إلى معضدى فرضّضه ... ذو قوة ما يطاق مقتدر
كيف بأمّى إذا رأت شفتى ... أم كيف إن شاع منك ذا الخبر[1]

بستانه

إذا لم يَزُرْنى نَدْمانِيه ... خلوتُ فنادمتُ بستانيه
فنادمته خَضِراً مؤنقا ... يهيّجُ لى ذكرَ أشجانيه
يقرّب لى فرحةَ المستلذ ... ويُبْعِد همّى وأحزانيه
أرى فيه مثلَ مدارى الظُبى ... تظلُّ لأطلائها حانيه
ونور أقاحٍ شتيتَ النبا ... ت كما ابتسمت عجباً غانيه

---

(١) بشار .

ونرجسة مثـل عين الفتاة إلى وجهِ عاشقها رانيه[(١)]

كيف يكون النوم ؟

قفا خبرانى أيهـا الرجلان عن النوم إن الهجرَ عنه نهانى
وكيف يكون النومُ أم كيفَ طعمهُ
صِفا النــــومَ لى إن كنتما تَصِفان

أيقظونى ورقدوا !

أبكى الذين أذاقونى مودتهم حتي إذا أيقظونى للهوى رقدوا

الشغل للقلب

أغيب عنكِ بودٍّ لا يغيره نأى المحل ولاصرف من الزمن
تعتلُّ بالشغل عنـــــا ما تـكلمنا
الشغلُ للقلبِ ليس الشغلُ للبدن[(٢)]

الحب والخلود

يا أيهـا المعمودُ قد شفَّكَ الصدودُ
فـأنت مستهـامٌ حالفـك السهـود

---

(١) الشعر لابن المعذل .
(٢) العباس بن الأحنف .

يا عاذليَّ كفَّا فإننى معمودُ
قد أقصدت فؤادى خِمْصانةٌ خريدُ
هجرانُها قريبٌ ووصلُها بعيد
كلامُها خلوبٌ إلى الصبى يقودُ
وطرفها مريضٌ ولحظها صيود
وقدها ممشوقٌ منعَّمٌ مقدودُ
كأنَّه قضيبٌ فى غَرْسِه يميد
من لام فى هواها فنصحُه مردودُ

***

يا سحرُ واصلينى فإننى عميدُ
جودى لمستهامٍ عذَّبه السهود
نسهر من هواكم وأنتمُ رقودُ
وفى الفؤاد نارٌ ليس لها خمودُ
أبادنى هواكم والحبُّ لا يبيدُ
والحب لى نديمٌ والحب لى قعيد
حتى متى مناى لا ينجز الموعود
وسادة سَراة ما فيهم مسود
يُسْقَوْن صفو راح لذيذها موجود
مدامةٌ لها فى خدودِنا توريد

كأنَّ شاربيها في سوقهم قيودُ
حتى انثنتْ عيونٌ واحمرَّتِ الخدودُ
في مجلس نضيرٍ يزينهُ الشهّود
غطارف كرام بيض الوجوه صيد
من فوقهم أطيارٌ صياحُها تغريدُ
وتحتهم جنانٌ نباتها نضيد
وعندهم دِفافٌ وزامرٌ وعودُ
خاضوا ببحر قصفٍ تجرى له مُدود
حتى انتشوا وقاموا مجلسهم محمودُ
من نال مثل هذا فإنه سعيد
هذا الخلود عندي لو دام لي الخلود !

ظبي

ذاك ظبي تحير الحسن في الأر كان منه وحل كل مكان
عرضت دونه الحجال فما يلقاك (م) إلا في النوم أو في الأماني

ذنبي !

وإني لأخلو مذ فقدتك دائبا فأنقش تمثالا لوجهك في الترب

فأسقيه من عينى وأشكو تضرّعاً
إليه بما ألقاه من شدة الكرب
فوالله ما أدرى بما أنا مذنبٌ
إليك ، سوى الافراط فى شدة الحب(١)

قبلة

وقد أنهبنى فاه ووَلّى ، وهو عجلان
فقل فى مكرعٍ عذبٍ وقد وافاه عطشانُ
وضَمٍّ لم نحسّنه له فى الريح أغصان
كما ضمّ غريقٌ سا بحاً والماء طوفانُ
وما خفنا من الناس وهل فى الناس إنسان !

بدر

والبدر فى أفق السماء كدرهمٍ ملقى على ديباجةٍ زرقاء

نومة قوّادة

وكم نومةٍ لىَ قوّادةٍ أتتْ بالحبيبِ على بُعدهِ

ليلة قمراء

هل لك فى ليلة بيضاء مقمرةٍ كأنها فضة ذابت على البلد

---

(١) الشعر لمسلم .

أمير

وجلجل رعدٌ من بعيـــدٍ كأنه
أميرٌ على رأسِ اليفـاعِ خطيب(١)

ليلة

وليلةٍ من الليالى الزُّهرِ قابلتُ فيها بدرَها ببدرِ
لم تكُ غـــيرَ شفقٍ وفجـرِ
حـتى تولتْ وهى بِكْرُ الدهر(٢)

***

ذبت من الشوق فلو زُجَّ بى فى مقلة النائم لم ينتبه(٣)

***

أحبكِ حبــاً لو يفضّ يسيره
على الخلق مات الخلق من شدة الحبِّ
وأعلم أنى بعــد ذاك مقصرٌ
لأنك فى أعلى المراتب من قلبى(٤)

---

(١) الشعر لابن المعتز .
(٢) عبد الله بن العباس .
(٣) الخبز أرزى .
(٤) محمد بن أبي أمية .

من أسفلٍ ومن علِ

نزلت بمرماجرجس خير منزل ذكرت به أيام لهو مضيْنَ لى
تكنفنا فيه السرورُ وحفنا
فمن أسفلٍ يأتى السرورُ ومن عَلِ (١)

قم بنا !

قد بدا شبهك يا مولا ىَ يحدو فى الظلامِ
قمْ بنا نقض لُبانا ت التزامٍ والتشامِ
قبل أن تفضحنا عودةُ أرواحِ النيّام

صلة الحب

علم الجمالِ تركتنى فى الحب أشهرَ من علم
ونصبْتَنى يا مُنْيَتِى غَرَضَ المظنةِ والتُّهَم
فارقتنى بعد الدنوِّ فصرتَ عندى كالحلم
ما كان ضرّكِ لو وصلـ ت نخف عن قلبى الألم
برسالةٍ تهدينها أو زروةٍ تحت الظلم
أو لا ، فطيفى فى المنا م فلا أقلّ من اللمم
صِلةُ المحبِ حبيبَه اللهُ يعلمُه كرم (٢) !

---

(١) النميرى .
(٢) فضل الشاعرة .

ذلك طرف من شعرهم ، أما نثرُهم فيظهرُ فى رسائلهم ومكاتباتهم . وقد كانوا يعنون بها و يتظرفون فيها . فيجعلونها من بديع الحرير الصينى والدبيقى ، و ينقشونها بالذهب والمسك والزعفران . و يطيبونها بالعنبرِ والغاليةِ ، و يبالغون فى لطافتها وأناقتها ، لاسيما أهل الهوى منهم ؛ فقد بلغوا فى ذلك كل غاية ، وتجاوزوا كل وصف . وربما ضمَّنت العاشقات كتبهن خصلاً من شعورهن ، أو قطراتٍ من دموعهن ، أو عطراً من عطرهن ليزدن فى أنس الحبيب ، و ينبئنه بحالهن وعذابهن .

وهاك نماذج قصيرة من المكاتبات والرسائل :

قال ابن المعتز : كتب إلى النميرى يستبطىء رسولى ، و يعتذر من تأخره عنى ، و يذكر أنه اشتغل بعمارة بستانه ، فأجبته : « أما ما ذكرت من تأخر رسولى عنك للسؤال عن خبرك فى هذه الأيام ، والتفقد لك ، فإنى رأيتكَ قبلتَ قولَ القائل : « خُذِ اللصَّ من قبلِ أن يأخذَكَ » . وإلا فما قصرت فى السؤال عنك والبعثةِ إليك ، ولكن ما أقولُ لمن نكس عليلُه فلم يعده ، واشتاق إليه فلم يزره ، مشتغلاً بطروق الحانات والديارات ، وركوبِ الزلَّالات ، ومغازلةِ القيان ، ومعاقرة ابنة الدِّنان ، جامعاً بين طرفىْ نهاره بغَبوقٍ لا يهدأ سامرُه ، وصبوح لا يفترُ باكرُه . فى عسكرَىْ لهوٍ ، واحد يخبط الماء بمجاديفه ، وآخر يقرع الأرض بخيله ووجيفه » .


وكتبت « عريب » إلى أحد أصدقائها :

« بنفسى أنتَ وسمعى وبصرى ، وكلُّ ذلكَ لكَ . أصبح يومُنا هذا طيباً ، طيب اللهُ عيشَك ، قد احتجبتْ سماؤه ، ورَقّ هواؤه ، وتكاملَ صفاؤه ، فكأنه أنتَ فى رقّةِ شمائلك ، وطيبِ محضركَ ومخبركَ ، لا فَقدْتُ ذلك أبداً منك ، فبعثتُ إليك ببدعةَ وتحفة ليؤنساك ، وتسرّ بهما ، سرك الله وحفظك » .


وأرسلت ظريفة إلى صاحبها تقول :

« جَفَوْتنا من غير استحقاق للجفاء ، وملْتَ إلى غير « مذاهب الظرفاء . وإنى لم أزل واثقة بإخائك ، راجية لحسن « وفائك ؛ وتحقيق ظن مؤملك أولى بك من الوقوف على « تجنبك .

« فأجابها : أنا من وُدك على أحسن عهدك ، ومن الأمل « لك على أضعاف ما عندك . ولقد استوحشْنا من فَقْدِكِ ، « فاجعلى لنا حظا من أنسك » .



الشّحاذُونَ



الفصل الأول

الفقر والكدية

٥٣ — كانت بغدادُ فى العصر العباسى مَوطنَ الترف ومُجْتَنَى الغنى لطائفة من الناس ، نالت الحُظوة عند الخلفاء والوزراء ، من الولاة والأمراء ، والشعراء والمغنين ، والملَّهين والندماء . وكانت بلدةَ العوزِ والإقلال ، والفقرِ والإقتار ، لطائفة أخرى من العوام لم تذق هناءة النعيم ، ولا عرفت لذَّة اليسار . فبينما كان أولئك المُترَفون ، يهنئون بعيش مونق ناعم ، كان المعْوَزون يعانون ذُلَّ الفقر وألم السؤال . فكانت دار السلام والملك :

تُصلح للموسر لا لامرئ ٍ   يبيتُ فى فَقْر و إفلاسِ (١)

ولقد رأيت فى سيرة الظراف مبلغَ ما وصلَ إليه الترف والغنى ، وسمعت إلى ما يطرب ويُعجب ، فاصْغ الآن إلى أنغام جِداد ، لا يُشاكلْنَ نغماتِ المزاهر ، ولا يحاكين رنَّات الأعواد ، ولكنَّهن فاترات محزنات ، فيهن زفرات الجائعين ، وحسراتُ البائسين ، وأنينُ الفقراء .

(١) معجم البلدان ، مادة بغداد ج ١ ص ٦٩٣ .

أبو الشمقمق وأبو فرعون

هذا أبو الشمقمق ؛ يجوع فلا يجد مَنْ يُطعِمه ، ويعرى فلا يلقى مَنْ يكسوه ، فيدع عياله يأكلون خبز الغضارة ، ويشربون بول الحمارة .

إن العيالَ تركتُهم بالمِصْرِ خبزُهم الغَضاره
وشرابُهم بولُ الحمار (م) مِزاجُه بولُ الحماره[1]

ثم ينادى :

ولقد أهزِلْتُ حتى محتِ الشمسُ خيالى
ولقد أفلستُ حتى حَلَّ أكلى لعيالى
مَنْ رأى شيئاً مُحالاً فأنا عينُ المُحال[2]

وهذا أبو فرعون : يحمل صِبْيَتَهُ الصِغار ، سودَ الوجوه ، خمْصَ البطون عُرْىَ الأجسام ، يطوف بهم فى الأسواق ، يسأل الناس أن يتولُّوا أمره ويشبعوه .

وصبيةٍ مثل فراخِ الذرِّ سودِ الوجوه كسوادِ القِدْرِ
جاء الشتاء وهُمُ بشرِّ بغير قُمْصٍ وبغير أُزْرِ
حتى إذا لاح عمودُ الفجر وجاءنى الصبحُ غدوت أسرى
وبعضُهم ملتصقٌ بصدرى وبعضهم مُنْحَجِرٌ بحجرى
أسبقُهم إلى أصول الجُدْر هذا جميعُ قصتى وأمرى

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٥٤ .

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٤

فارحم عيالى وتولَّ أمرى أنا أبو الفقر وأمُّ الفقر(١)

فما أبرعَ هذا الوصف الدقيق ! إنها لوحةٌ رائعة ما كان أخلقَهَا أن ترسم بريشة رافائيل أو رامبراند . وما أدق قوله : « وبعضُهم ملتصق بصدرى ... » إن فيه حسرةً وألما ، وفيه بكاء يبعث على الإشفاق ...

وها هو ذا أبو العتاهية يشكو غلاء الأسعار ، ونَزْرَةَ المكاسب ، وفُشُوَّ الضرورة :

مَنْ مبلغٌ عنى الإمامَ (م) نصائحاً متواليه
إنى أرى الأسعارَ أسعارَ الرعيَّة غاليه
وأرى المكاسبَ نَزْرَةً وأرى الضرورة فاشيه(٢)

فلا عجبَ بعد هذا كلّه أن يلجأ الناسُ إلى الكدية(٣) ، هذه المهنة التى كان ساسانُ أولَ من وضع أساسها ، يحتالون بها على المعاش .

والحق أن أولئك الفقراء الذين ضمَّهم بغداد والأقاليم ، كانوا كِثاراً . ولكن أباالعتاهية ، وأبا الشمقمق ، وأبافرعون ،

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٧٩ ، ولهذه الأبيات رواية أخرى فى كتاب « الورقة » المخطوط .

(٢) الديوان .

(٣) الكدية فى اللغة حرفة السائل الملح . يقال أكدى إذا ألح فى المسألة ، وهو مكد أى سائل شحاذ ، وهم المكدون أى الشحاذون .

نفسوا كربهم بأبيات من الشعر الباكى خلّدت ذكرهم . أماغيرهم فلقد قضوا تحت نير الفقر ، وحسراتُهم تتردد فى نفوسهم ، فلم يعلم بهم أحد ، ولم يذكرهم إنسان .

انتشار الكدية فى بغداد وباريس

٥٤ — ولم تكن الكدية منتشرة الانتشار العظيم قبل زمن المهدى . على أنه كان خَلق من ذوى الزَّمانة والعاهة يقفون على الجسر زمن المنصور فيسألون الناس . ورآهم رسول ملك الروم فعاب على المنصور أمرهم[1] . فلما تَرِفَ أناس ، وجمعوا الأموال ، افتقر أناس آخرون ، فلم يجدوا مثل الكدية مهنة تدرُّ عليهم الأموال ، وتكفيهم عناء الأعمال .

وأخذ الشحاذون ينتشرون فى كل مكان . وأقبلوا من الكوَر والجهات إلى بغداد ، حاضرةِ الدنيا ، على قول الزجّاج ، لينعموا بفضلات موائد الموسرين المنعّمين ، ودريهماتِ الأغنياء المُترَفِين . فكان شأنهم ، شأن المكدين فى فرنسة ، فى القرن السابع عشر ، أيام أقبلوا فى عهد لويس الرابع عشر ، إلى باريس . وكانت باريسُ يومئذ منبعَ الخيرات ، فى حين كانت المقاطعاتُ الفرنسية جديبةً لا خيرَ فيها ؛ بسبب المكوس التى كانت تفصل بعضها عن بعض . وقد بلغ أمر هؤلاء الشحاذين من الخطر مبلغاً عظيماً ، وتعدّى سؤالهم القوت إلى الشراسة

---

(١) رسل الملوك لابن الفراء (مخطوط فى خزانتى) ص ٢٢ آ (١٦٣)

فى الخلق، والقساوة فى الطبع، والبذاءة فى اللسان . فأدّى ذلك إلى قلق الناس جميعاً ، حتى الملوك أنفسهم . فقد شكا لويس الرابع عشر أمْرَهُم إلى صاحب شرطتـه . وغضب لويس السادس عشر لوَفْرَتِهم . وتدَخَّل برلمان باريس سنة ١٦٦٢ فقرّر طردهم وإعادتهم إلى بلادهم[1] .

على أن أمر الشحاذين فى بغداد لم يصل إلى ما بلغه أمرُ أولئك فى باريس من الوقاحةِ والشراسة . فقد وَسِعَتْهُم بغداد وأشبعَتْهُم . وكأن الحضارة التى رأوها تشع قد أثَّرت فيهم أيضاً ، فاستعانوا على الكدية بحيل فيها لطف وبراعة ، وفيها مكر وخداع ، فتفننَّوا وأجادوا . فكان أن كَثُرَ المكدون ، وكانت لهم أحاديثُ وأنباء ، قامت عليها رائعات أدبية صوّرت لنا سعىَ الناس وراء هذه المهنة التى تدرّ المال الكثير بالجهد القليل .

التظاهر بالفقر

٥٥ — ولا بُدَّ من الإشارة إلى أن أناساً آخرين كانوا يتظاهرون بالفقر ويلتجئون إلى الكدية ، لينجوا من أعباء ثِقال بدافع الكسل والتوانى Fénéantise ، لأن الفقيرَ « خفيف الظهر من كل حق ، منفك الرقبة من كلّ رِق .

---

(١) Funk Brentano : Prisons d' Autrefois Ch. vII : Les Mendiants P. 49.

لا يلزمه أداء الزكاة ، ولا تتوجّه عليه غوائلُ النائبات ، ولا يطمع فيه الأهل والجيران ...[١] » ومن كان على شاكلة هؤلاء فى فرنسة كان يُضرب ويُعَذَّب ويُساق إلى السجن[٢] .

وأياً كان حال هؤلاء ، وسواء أكان الفقر حقاً أم وسيلة لابتزاز الأموال ، فقد تفنَّن الناس فى السؤال ، وبرعوا فى ضروبه وحيله ، ونهجوا فيه نهوجاً مختلفات ، وسلكوا طرقا متباينات ، سنراها بعد قليل . لأنهم وجدوا فى هذه الحيل سبيلا إلى الغنى ، كما وجد الظرفاء المترفون بلطفهم ورقتهم وشعرهم النعيم فى قصور الخلفاء . فكان هناك إذن طريقان لليسار : اللواذ بالقصور ، أو الانضمام إلى أصحاب هذه الحِيل الدنيا . وقد أبان عن بعض ذلك أبونواس فى قصيدة له . فقال :

سأبغى الغنى إما نديم خليفة يقيم سواء ، أو مخيف سبيل

(١) رسائل الخوارزمى ص ٩٠ .

(٢) N. Larousse Illustré, Mat. Mendiant,

الفصل الثانى

أسرار الكدية

وصية خالويه

٥٥ — كان الجاحظ أول من نوه بالمكدين وذكرهم؛ فقد سرد فى وصية خالويه المكدى لابنه ، عندما جاءه الموت ، عدداً من فِرقهم ، وبيَّن طَرَفاً من أسرارهم ، فقال : « وهذا خالويه المكدى ، وكان قد بلغ من البخل والتكدية ، وفى كثرة المال المبالغ التى لم يبلغها أحد . قالوا له : أتعرف المكدين ؟ قال : وكيف لا أعرفهم ، ولم يبق فى الأرض مخطرانى ، ولا مستعرض الأقفية ، ولا شحاذ ، ولا كاغانى ، ولا بانوان ، ولا قرسى ، ولا عوّاء ، ولا مشعّب ، ولا مزيدى ، ولا إسطيل ، إلا وكان تحت يدى . ولم يبق فى الأرض كعبى ولا مكد إلا وقد أخذت العرافة عليه[١] . »

حيل الشحاذين فى بغداد وباريس

٥٦ — ولعل من الطرافة أن نتتبع أخبار هؤلاء المكدين فنعلم طرقهم فى التكدية وسيرَهم فيها ، وأن نجلى كل فريق من هؤلاء الذين ذكرهم الجاحظ ، ونبين خصائصه فيها . فأما

---

(١) البخلاء ص ٩٣ (دار الكتب) .

المخطرانى[١] ، فهو الذى يأتيك فى زى ناسك متعبد ، عليه سكينة ووقار ، فيريك أن بابك الخرّمى قوّر لسانه من أصله ، لأنه أذّن للصلاة فى بلاده ، ثم يفتح فاه كما يصنع من يتثاءب ، فلا ترى له لساناً ألبتّة . يقول الجاحظ : « ولسانه فى الحقيقة كلسان الثور . ولقد كنت أحد من خدع بذلك » ويصحب المخطرانى عادة رجل يحكى قصته للناس ، وقد يحمل لوحاً أو قرطاساً قد كتب فيه شأنه وقصته ويعرضها على الناس . ويحاكي هذا فى فرنسة من كانوا يسمونهم Les Rifodés وكانوا يحملون قرطاساً كتبوا فيه أن مكروهاً أصابهم ، فأضحوا بلا مأوى[٢] .

وأما مُسْتَعْرِضُ الأقفية ، فيأتيك من قفاك ، وهو فى ثياب صالحة ؛ كأنه هاب من الحياء نخاف أن يراه من لا يعرفه ، ثم يكلمك كلاما خفياً ، ويشكو لك فقره وعسره ، ويفضى بذات نفسه .

وأما السكاغانى فهو الذى يتجنن ويتصارع ؛ يظهر أنه مجنون تارة أو مصروع تارة ، ويُزْبد حتى لا تشك أن لا دواء له لشدة ما ينزل بنفسه ، وحتى تعجب من بقاء مثله على مثل

---

(١) أنظر معنى هذه الكلمات فى البخلاء ج ٩٧ ص ١٠١ .

(٢) Brentano. Prisons d' Autrefois. Ch. vII. P. 53

علته ، فترحمه وتواسيه ، وتبره بما يشاء . وقد كان شحاذو فرنسة يلجئون إلى هذه الحيلة ، فيتصارعون فى الطرق و يظهرون ذلك : أى Frappès d' Epilepsie . ور بما وضع أحدهم فى فمه قطعة صابون ترغى فتخرج الزبد الذى يدل على المرض . وكانوا يسمونهم Les Sabouleux [(١)] .

وأما البانوان فهو الذى يقف على الباب يستجدى فيفتحه قليلا ، و يقول بالفارسية « بانوا ، بانوا [(٢)] » وتعنى « يامولاى ، يامولاى ... ! »

والقَرَسى هو الذى يعصب ساقه وذراعه عصباً شديداً ، و يبيت على ذلك الليل كله . فإذا تورم ، واختنق الدم ، مسحه بشىء من صابون ، و بنبت أحمر اسمه « دم الأخوين » ، وقطر عليه شيئاً من السمن ، وأطبق عليه خرقة ، وكشف بعضه . فلا يشك من يراه أن به أَكَلَةً فيعطف عليه .

ور بما احتال المشعّب للصبى حين يولد بأن يعميه أو يجعل ذراعه معوجة شلاّء ؛ أو عضده الواحد أقصر من الثانى ، ليسأل به الناس . ور بما جاءت به أمه أو أبوه ، فأكرياه بكراء معلوم .

---

(١) F. B. Prisons d' Autrefois ch. vll, P 54.

(٢) كذا أورده الجاحظ ، وقد أخبرنى الأستاذ الشاعر أحمد الصافى النجفى أن الأصح « بينوا » ومعناها بالفارسية : منقطع مسكين .

أما الإسطيل فهو المتعامى ؛ إن شاء أراك أنه منخسف العينين ، و إن شاء الله أراك أن بهما ماء .

وأشباه هؤلاء الذين يظهرون المرض ، فيعصبون ساقهم ، أو يتعامون ، أو يظهرون الشلل ، كانوا كثراً عند الغربيين . وكانوا يطوفون فى الأسواق متعامين Aveugles أو متصامين Sourdes أو مشلولى الأطراف Paralytiques . وربما جرحوا ذراعهم فسال منها الدم والقيح ، وربما أكلوا ما يسبب نفخة فى بطونهم . يدورون و يستجدون ، فإذا عادوا إلى مأواهم زال عنهم ما كانوا يشكون ، مرددين قول Isaie : « وعندئذ ترى عيون العميان النور ، وتسمع آذان الصمان الأصوات ، و يقفز العرجان كالغزلان(١) ... »

وكان إلى جانب ما ذكرنا ، العوّاء والمزيدى . أما الأول فهو الذى يسأل بين المغرب والعشاء . وربما طرّب وكان له صوت حسن وحلق شجىّ . وأما الثانى فهو الذى يدور ومعه الدريهمات ويقول « هذه دراهم قد جمعت لى فى ثمن قطيفة فزيدونى فيها . . » . وربما طلب فى الكفن فسأل الناس أن يساعدوه فى تكفين ميت كذباً و بهتاناً .

وقد ذكر الجاحظ فى ثنايا كلامه عن البخلاء نوعاً آخر

---

(١) F. B. P 51.

من المكدين هم المعدّسون . والمعدس هو الذى يقف على الميت يسأل فى كفنه . أو يقف فى طريق مكة على الحمار أو البعير ، يدعى أنه كان له ، ويزعم أنه عيق عن المضى فى سفره بسبب موت الحمار أو البعير . وقد تعلم لغة الخراسانية واليمانية والإفريقية .

* * *

حيل أخرى

٥٧ — ويزداد انتشار المكدين . وتظهر حيل أخرى لم تكن فى زمن الجاحظ . ثم يأتى البيهقى ، فى القرن الرابع ، فيكتب عن المكدين ، ويضيف إلى ما ذكره الجاحظ حيلا أخرى[١] .

فهذا رجل يأتيك ، أو يأتي إلى المسجد ، وعليه بزّة حسنة وسراويل واسعة ، فيها تكة قد شدّها إلى عنقه فيقول وطرفه دامع : « لقد وجهنى أبى إلى مرو[٢] فى تجارة ؛ وكان معى متاع بعشرة آلاف درهم . فقُطِع علىّ الطريق ، وتُركت على هذه الحال . ولست أُحْسِنُ صناعة ، ولا معي بضاعة . فجودوا علىّ » . وهذا هو المكّى .

وذاك رجل آخر ، تراه مبكراً إلى المساجد فى الأسحار ، يطلب

---

(١) المحاسن والمساوىء للبيهقى ص ٦٢٤ وما بعدها .

(٢) أشهر مدن خراسان ، والنسبة إليها مروزى على غير قياس . معجم البلدان ج ٤ ص ٥٠٧ .

الصدقة من الناس ؛ وهذا هو السَحَرى . وربما قصدها فى النهار بعد الصلوات . وهـذا الضرب ممن يقصدون المسجد ، يشبه شحاذى فرنسة الذين كانوا يقصدون الكنائس ، فيقفون أمامها ويطلبون صدقات المصلين فيها[١] .

وربما رأيت من يؤثر فى يده اليمنى ورجليه حتى يرى الناس أنه كان مقيداً مغلولا . أو يأخذ بيده تكة فينسجها يوهمك أنه قد حُبس فى المطبق خمسين سنة .

وقد يحتال أحدهم فى وجهه حتى يجعله أسودَ كوجه خاقان ملك الترك ، ويوهمك أنه وَرِمٌ . فيسمونه الخاقانى ويسخرون منه مرة ويعطفون عليه تارة ، وفى الحالين يربح المال .

وربما ترافق الصاحبان ، فإذا دخلا المدينة قصدا أنبل مسجد فيها . فيقوم أحدهم فى أول الصف والثانى فى آخره . فإذا سلم الإمام ، صاح الذى فى آخر الصف بالذى فى أوله : « يا فلان ! قل لهم ... » فيقول الآخر : « قل لهم أنت ، أنا أيش ؟ » فيقول : «قل ويحك ولا تستح» فلا يزالون كذلك وقد علقا قلوب الناس وهم ينتظرون ما يكون منهما . فإذا علما

---

(١) F. B. Ch vll, P 54

أنَّهما قد ملكا القلوب، تكلما بحوائجهما ، وقالا : نحن شريكان كان معنا أحمالُ بزّ كنا حملناها من فسطاط مصر ، نريد العراق ، فقُطع علينا الطريق وقد بقينا على هذه الحال لا نحسن أن نسأل . وليست هذه صناعتنا ، ويوهمان الناس أنهما ماتا من الحياء .

ومنهم من يلبس دراعة صوف ، مشقوقة من خلف وقدام وعليه خف ثغرى بلا سراويل ، يتشبه بالغزاة المنقطعين .

وقد كان شحّاذو الغرب ينحون نحواً كهذا . يجتمعون عصابات صغاراً بأثواب ممزقة ، وقمصٍ قصار ، وقبعاتٍ مزدانة ببقع الشحم ، وعلى ظهورهم الأكياس ، يستعطفون الناس ، ويدّعون أنهم سُلبوا فى الطريق . ويسمون Les Polissons وربما تشبّهوا بالحجّاج الآتين من Mont St Michel ، وقد أصابهم الفقر وعضهم الجوع ويسمونهم Les Coquillards [١]

وقد يعمد شحاذونا إلى طُرُق فيها دناءة وسفالة . فيحتالُ أحَدُهم لخصيتيه حتى يريك أنه آدر . وربما أراك أن بهما شرطا أو جرحا . وتفعل المرأة ذلك فى فرجها لتسأل الناس بذلك مالا .

---

(١) فرنك برنتانو ص ٥٤ F. B. P 54

وكانوا يتعرضون لصناعات المخرقة ، فيعملون التعويذة ، ويكتبون الحجب ، ويحتالون على الناس[١] .

* * *

القرد الشحاذ

٥٨ — وما زال الشحاذون يتفننون فى الكدية حتى بلغوا مبلغاً لم يُجارهم فيه أحد .

ويذكر آدم متز ، نقلاً عن الجوبرى ، ما يدعو إلى العجب والدهشة . حدّث الجوبرى أنه رأى بحرّان سنة ٦١٣ رجلا من بنى ساسان ، قد أخذ قرداً علّمه السلامَ على الناس ، والتسبيحَ والسِّواكَ والبكاء . قال : ثم رأيت لهذا القرد من الناموس ما لا يقدر عليه أحد . فإذا كان يوم الجمعة أرسل عبداً هنديا ، حسن الوجه ، نظيف الملبوس ، إلى الجامع فبسط عند المحراب سجادة حسنة . فإذا كان فى الساعة الرابعة ألبس القرد ملبوساً خاصاً من ملابس أولاد الملوك ، وجعل فى وسطه حياصة لها قيمة . ثم طيّبه بأنواع الطيب ، ثم أركبه بغلة بمركوب ذهب محلى ، ثم مشى فى ركابه ثلاثةُ عبيد هنود بأفخرِ ملبوس : الواحدُ يحمل الوطاء ، والآخر يحمل الشرموذة

---

(١) الحريري المقامة الصورية ص ٣١٤ .

والثالث يطرق قدّامه وهو يسلم على الناس . وكلٌّ من سأل عنه يُقال له : هذا ابن الملك الفلانى من أكبر ملوك الهند ، وهو مسحور . فلا يزال حتى يدخل الجامع ؛ فيفرش له الوطاء فوق السجادة ، ويحط له سبحة ومسواك ، فيقلع القرد منديله من الحياصة ويضعهُ بين يديه ، ويستاكُ بالمسواك ، ويصلى ركعتين تحية المسجد . ثم يأخذ السبحة ويسبح . فإذا فعل ذلك نهض العبد الكبير على قدميه ، فسلم على الناس وقال : يا أصحابنا ، من أصبح مُعافى فإن لله عليه نعمة لا تحصى . اعلموا أن هذا القرد الذى ترونه بينكم ، لم يكن فى زمانه أحسن شباباً منه ، ولكن المؤمن ملقى لقضاء الله ؛ وكان من القضاء المدبر أن زوجه والده ابنة الملك الفلانى . فأقام معها مدّه . ثم قالوا لها إنه عَشِقَ مملوكا له . فأدركتها الغيرة ، فذهبت إلى أهلها وسحرته كما ترون ... وقد سألناها بجميع الملوك أن تعيده ، فادّعت أنها خلّفت عنده أثاثاً قيمته مائة ألف دينار . وقد تخلف عليه عشرة آلاف ، فمن يساعده بشىء ؟

ارحموا هذا الشاب الذى عدم الأهل والوطن ، وأخرج

من صورته إلى هذه الصورة ! »

فعندئذ يجعل القرد المنديل على وجهه و يبكى . فترق له القلوب ، و يرفده الناس . فما يخرج من الجامع إلا بشىء كثير . وهو يدور به البلاد على هذه الصفة[١] ... » اهـ .

أفرأيت إلى هذه الحكاية البارعة المنمقة ، التى يتجلى فيها الحيلة والخديعة ، و تُظهر الدرجة التى سما إليها اتباع ساسان فى الكدية والسؤال . الحق أنها حيلة نادرة غريبة ، دفعتهم إليها الحاجة ، والحاجة تولد التفكير والاختراع .

---

(١) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع . لآدم متز جـ ٢ صـ ١٠١ ١٠٢ نقلا عن « كشف الأسرار » للجوبرى مخطوط فينا صـ ٢٥ آ ـ ب

الفصل الثالث

أثر المكدين فى الأدب

كان الأجدر بنا أن نختم مبحثنا عن الكدية بهذا الفصل؛ ولكننا آثرنا تقديمه لأنه يُظهر لنا صوراً جديدة وحِيَلاً طريفة ، ذكرها الأدباء والشعراء ولم يذكرها غيرهم . يزيد فى قيمتها أن أولئك الذين صوّروها هم شعراء قد عانوا التكدية بأنفسهم وخبروا مداخلها وأسرارها .

شعراء الشحاذين
الأحنف العكبرى

٥٩ — وأشهر هؤلاء الشعراء الأحنف العكبرى ، وابن الحجاج وأبو دلف الخزرجي .

أما الأحنف العكبرى فكان شاعر المكدين وظريفهم ، وكان مليح الجملة والتفصيل . قال عنه الصاحب بن عباد « هو فرد بنى ساسان فى دار السلام » . وكان يصف فى شعره التكدية وأسرارها ، والمكدين وأحوالهم ، وكيف يرتعون فى الأرض كما يشاؤون ، وأنَّى يريدون :

على أنى بحمـــد الله فى بيت من المجدِ
بإخوانى بنى ساسان ، أهل الجَدّ والجِد

لهم أرض خراسانٍ فقاشانٍ إلى الهند
إلى الروم إلى الزنج إلى البلغار والسند[١]

ابن الحجاج

وأما ابن الحجّاج ، فقد كان من شعرائهم الذين يشار إليهم ، وجُلُّ شعره فى الكدية . وقد أورد له الثعالبى طرفاً صالحاً منه ، لا يخرج عن شعر الأحنف العكبرى[٢] .

أبو دلف الخزرجى

على أن الشاعر الذى يدعو شعره إلى العجب والطرب ، فأبو دلف الخزرجي ؛ فقد كان كثير الملح والطُّرَف ، مشحوذ المدية فى الكدية . خنق التسعين فى الإطراب والاغتراب ، وكان ينتاب حضرة الصاحب ، ويرتفق بخدمته ، ويتزوّد بكتبه فى أسفاره ، وكان له قصيدة سمّاها « مناكاة بنى ساسان » تُعَدُّ من أبرع الشعر وأحلاه ، وكان الصاحب يحفظها حفظاً عجيباً ، ويعجبه من أبى دلف وفور حظه منها[٣] .

فرانسوا فيلون

ويحاكى هؤلاء الشعراء فى فرنسة ، الشاعر المعروف (فرانسو فيلّون François Villon) فقد خصّ طائفة من شعره نظمها باللغة العامّية المبتذلة Jargon بذكر ما لاقاه فى تنقله من بلد إلى بلد ، يكدى ويستجدى ، مع طائفة من الصعاليك

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٠٤ .
(٢) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٢٥ .
(٣) المصدر السابق ج ٤ ص ٣٢١ .

السائلين ، بعد أن سَرَقَ وقتلَ وسُجن . وكان يتقن لغة الشحاذين ويعرف أسرارهم ويعيش معهم [١] .

معلقة الشحاذين
القصيدة الساسانية

٦٠ — ولعل أجود ما يؤثر من شعر شعرائنا الشحاذين ، قصيدة أبي دلف الساسانية. وهي في مائة وتسعين بيتاً أو تزيد ، ولا شك أنها أجمع ما قيل في الكدية . فقد سرد فيها أحوال الشحاذين وأخبارهم وطرق تكديتهم ، ولا عيبَ فيها سوى ألفاظها ، لأنه أدخل فيها ألفاظَ أهل الكدية ، وهي ألفاظ عجيبة غريبة غامضة ، يشمئز منها الذوق وينبو عنها السمع .

يفتتح أبو دلف قصيدته بغزل رقيق ، يخلص منه إلى أنه من القوم البهاليل ، فيحدثك عن شمائلهم ومحاسنهم ، ثم يسرد لك أخبارهم وسيرَهم وحِيلهم حتى تتمثل أولئك البائسين المخادعين ، وتراهم نصب عينيك . يقول :

جفون دمعها يجري ... لطول الصدّ والهجر
وقلب ترك الوجد ... به جمراً على جمر
لقد ذقت الهوى طعمـ ... ـين من حلوٍ ومن مرّ
ومَنْ كان من الأحرار يسـ ... ـلو سلوة الحرّ
تعرّيتُ كغصن البا ... ن بين الوُرق والخضر

(١) P. Lazard, Litterature F. Lllustrée P. 112

وشاهدتُ أعاجيبــا وألوانا من الدهر
على أنى من القوم البهـ ـاليل بنى الغُـرّ
بنى ساسان والحامى الحمـ ـى فى سالف الدهر
فنحن الناس كلّ النا س فى البرّ وفى البحر
أخـذنا جزية الخلق من الصين إلى مصر
إلى طنجـة بل فى كل أرض خيلنا تسرى
وإن ضاق بنـا قطر نَزُل عنـه إلى قطر
لنا الدنيـا بمـا فيها من الإسلام والـكفر
فنصطاف على الثلـج ونشتـو بلدَ التمر

ثم يمضى بعد هـذا الفخر ، فيعدد أنواعهم وأصنافهم فيقول : إن منهم المتجانن والمتجاننة ، ومَنْ يعلِّق فى صدره الرُّقى والمعاذات ، ومن يقوم فى مجالس القصّاص ، فيأمر القاص أصحابه أن يرفدوه ، فإذا تفرّقوا تقاسما ما أخذه ، وأن منهم مَنْ يبكي فى الأسواق ويرتجف فى البرد ليُعطى ، ومن يطوف على حوانيت الباعة فيأخذ جوزة من هنا ، وتمرة أو تينة من هناك . ومنهم مَنْ يشدّون العصابات على جباههم يوهمون الناس أنهم مرضى . أو يعقر نفسه بالموسى ليسيل دمه ويستدر مال الناس ، أو يطلى جسمه بالسيرج حتي يسودّ فيوهم الرائين

أن الجنّ قد لطمته فى الليالى الحالـكات . أو يدّعى أنه من الثغر وأنه فقير . أو يحمل ماء الورد يرشه على الناس ، أوالبخور يبخرهم بشذاه ، أو العطر يعطرهم بطيبه ، وربما تزيّا واحدهم بزىّ الرهبان ، أو أكدى على أنه من الحُجّاج ، أو لبس الشعر لأنه من الزهّاد . وقد يزعم أنه خرج من بلاد الروم وترك أهليه رهائن هناك ، وأنه يطوف ليجمع ما يفكهم به . وقد يقطع يده ويحملها على كتفه يسأل بها ، أو ينام فى السِكَكِ والأسواق على طريق المارّة ، فتعلوه غبرة التراب ، فيرحم ويُعطى . وربما قرأ التوراة والإنجيل ، وأوهم أنه كان يهودياً فأسلم ، أونصرانياً فآمن . وقد يثقب فى بدنه ثقبة وينفخ فيها حتى يتورم بدنه ، ويلف المنديل على رقبته فينتفخ رأسه ووجهه . أو أن يطوف على الأبواب فيما بين المغرب والعشاء ، وينادى : رحم الله مَنْ عشّى الغريب ، فيأخذ من كل دار كِسرة ، وينال من كل بيت لقمة . وقد يذهب إلى أبعد من هـذا ، فيحمل دفاتر الحديث يرويها ، ويأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر . أو ينظر فى الفأل والزجر والنجوم ؛ فيغترّ به الأبله ، ويجود عليه بدراهمه . أو يدّعى أن أباه كان نصرانياً ، وأمه كانت يهودية ، وأن النبيّ صلوات الله عليه أتاه فى النوم فقال له :

لا تَغْترّ بدين أبويك ، واتَّبع مِلّتِي ؛ فأسلم ، فطرده أبواه .
وربما طيّن واحدهم وَجْهَهُ وساعدَه بطين أحمر ، وروى الأشعار
على رؤوس الأشهاد فى الأسواق ، وربما خَضَب لحيته بالحنّاء
وادّعى أنه من الشيعة الكرام ، أو حمل السُبَح والألواح من
الطين وزعم أنها من قبر الحسين . فتقبل عليه الشيعة ويتحفونه
بالهدايا والألطاف . وربما ناح على الحسين وروى الأشعار فى
فضائله ومزاياه . وقد يحضر الأسواق ويقف إلى جانب صاحبه ،
فيروى هذا فضائل أبى بكر ، ويروى هذا فضائل علىّ ، فلا
يفوتهما درهمُ السنىّ والشيعى ، ثم يتقاسمان الدراهم والهبات .
وربما لبس الثياب الممزَّقَة وحلق لحيته المشعثة ، وأوهمك أنه
موسوس مجنون . وربما اكترى الصبيان والنساء فأكدى .
أو حمل السبحات وأقراص الحلوى فاستجدى . أو تصامم وقال
لمخاطبه : أنا لا أسمع ، فتكلَّمْ على هذا الخاتم باسمك وإسم أبيك
أنبئك بما تقول . فإذا تكلم الرجل سمعه وأنبأه بما قال . وقد
يدّعى رقية المجانين وأصحاب العاهات . أو يمخرق على العامىّ
ويضمن له الجنة . أو يأخذ منه المال ليحجّ عنه ويقول : إن
لم أحجَّ عنك فحظى من الجنة وقف عليك . أو يذهب فى
الآفاق يعبّر الرؤيا ويبيع الأدواء للنساء ، ويداوى الرمدى .

أو يقرِّد ويدبِّب . أو يعطى الهزيلات ما يسْمَنّ به . أو يطحن النوى والحديد والزجاج بأيديه وأضراسه . أو يرعد رِعدة شديدة تهتز لها مفاصله وتصطك أسنانه . ويقول : « لقد قتلت سنّوراً أو كلباً فلطمتنى الجن » . وقد يمشى على الحبل . أو يصعد بالبَكر . أو يمضى بين الدور يجمع الخرق والأطمار[١] .

والقصيدة كما ذكرنا فى مائة وتسعين بيتاً ، وألفاظها غريبة نافرة ، وفيها تعابير القوم . وهى جامعة لما ذكرنا ، مما لا تجده فى كتاب ولا تلقاه فى قصيدة . فهى جديرة أن تسمّى بحق « معلقة الشحاذين » .

***

المقامات والكدية

٦١ — ويسوقنا الحديث عن أدب الكدية إلى المقامات . ففى المقامات صور حيّة متحركة ، يزيد فى جمالها براعة القصّ ، وحلاوة اللفظ فى بعض الأحايين . وقد كان لقصيدة أبى دلف تأثير كبير فى الهمذانى[٢] حتى أنه يشير فى مقاماته إليها ويتطلع على ما فيها ، وقد استشهد فى مقامته الأولى بأبيات منها[٣] .

---

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٣٢٣ ، ٣٤٢ .

(٢) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ج ١ ص ٤١١ ، ٤١٢ .

(٣) رسائل الهمذانى ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، وانظر يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٤١ ، و ج ٣ ص ١٧٦ .

على أننا لا نجد فى مقاماته التى وصلت إلينا صوراً كثيرة للمكدين وحيلهم . فمقاماته أقل شأنا فى تصوير الكدية من مقامات الحريرى[١] . ورغم ذلك فهو يفتخر بأنه أملى فى الكدية أربعمائة مقامة ، لامناسبة بين واحدة وثانية فى اللفظ أوالمعنى[٢] ولكنها ضاعت كلها ، ... وأكبر الظن أن مقامات الهمذانى التى بين أيدينا صور واضحات لما فى قصيدة أبى دلف الخزرجى ؛ فان حِيل مقاماته تشبه حيل القصيدة الساسانية . أما الحريرى فكان أبرع وصفاً وأغزر حيلا ، وسنرى ذلك بعد حين . ولن نتعرّض لكل ما صوره الهمذانى والحريرى فى مقاماتهما من طُرُق الكدية والمكدين ، وإنما هى طُرَف منتقاة من هذه وتلك .

صورة من الهمذانى

٦٢ — ففى المقامة الأسدية نجد أبا الفتح الإسكندرى واقفاً على رأس أبنٍ وَبُنَيَّةٍ بجرابٍ وَعُصَيَّةٍ ، يُطرِّب ويقول :

رحم الله من حشا ... فى جرابى مكارمه
رحم الله من رنا ... لسعيد وفاطمه
إنه خادم لكم ... وهى لا شك خادمه[٣]

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية (المقامات) .

(٢) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٢٤١ ، والرسائل ص ٣٨٩ .

(٣) المقامات ص ٤٢ .

وربما رأيناه(١) يطوف مع أولاده الصغار ، يدعى أن فاقة أصابته بعد غناء ، وعسر بعد يسر ؛ أو يدّعى مَسْغَبَةَ أولاده ويستجدى(٢) . أو يأتى القوم حاملاً لهم بشارة من النبى عليه السلام ويقول : « لقد رأيتُ النبى فى المنام ، كالشمس تحت الغمام ، والبدر ليلَ التمام ، يسير والنجوم تتبعه ، ويسحب الذيل والملائكة ترفعه ، ثم علّمنى دعاء أوصانى أن أعلمه أمّته ، فكتبتهُ على هذه الأوراق ، بخلوق ومسك ، فمَنْ استوهبه وهبته ، ومن ردّ على ثمن القرطاس أخذته(٣) » وإذا بالدراهم تنهال عليه .

وقد نراه يتعامى فى شملة صوف ، يدور كالخذروف ، متبرنساً بأطولَ منه ، معتمداً على عصا فيها جلاجل ، يخبط الأرض بها على إيقاع غَنِج ، بلحنٍ هَزِج(٤) . أو تراه يدعى أنه كان من الكافرين فآمن وقصد بلاد المؤمنين ، تاركاً وراءه حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وخيلا مسوّمة ، ومراكب وعبيداً ... فهو يستجدى ... « لا أستكثر البدرة ، وأقبل

---

(١) المقامة الجرجانية ص ٥٦ .

(٢) الهمذانى . المقامة البصرية ص ٦٧ ، والمقامة البخارية ص ٨٧ ، وشبيهة بهما المقامة الأذربيجانية ص ٥١ ، ولا أولاد معه فيها .

(٣) المقامة الأصفهانية ص ٥٩ .

(٤) المكفوفية ص ٨٤ .

الذرّة ، ولا أرد التمرة[١] » . وقد يجعل نفسه قرّاداً يُرَقِّص القردة ويُلَهِّي الناس[٢] . وهذه صور رأيتها من قبل فى قصيدة أبى دلف

غير أن هناك صورة رسمها الهمذانى فى المقامة الموصلية ، لعلها أبرع الصور وأجملها . ففيها حلاوة وخفة ، وعليها سناء وطلاوة . وأعتقد أنها قطعة خالدة خلود الشحاذين . فقد ادعى أبو الفتح يوما إحياء الموتى . وها هو ذا يدخل على ميت قد سُخِّن ماؤه ليغسل ، وهُيِّء تابوته ليحمل ، وخيطت أثوابه ليكفّن ، وحُفرت حفرته ليدفن . فيجس عرقه ، ويقول : يا قوم ! اتقوا الله لاتدفنوه . إنه حى ، وإنما عَرَتْه بهتة ، وعلته سكتة ، وأنا أسْلِمُهُ مفتوح العينين بعد يومين . ويقوم أبو الفتح ومعه صاحب له ، فينزعان ثياب الميت ، ويشدان له العمائم ، ويعلقان عليه التمائم ، ويلعقانه الزيت ، ثم يخليان له البيت ، ويقول أبو الفتح : « دعوه ، دعوه . وإن سمعتم له أنيناً فلا تجيبوه ! »

ويشيع الخبر بأن الميت قد نُشر ؛ فتنثال عليه ، وعلى صاحبه ، الهدايا من كل دار . حتى إذا وَرِمَ كيسهما فضةوذهباً ، وامتلأ رحلهما أقَطاً وسمناً ... وخاض أهل الميت فى اللهو فرحين

(١) المقامة القزوينية ص ٩١ .

(٢) المقامة القردية ص ١٠١ .

حاولا الفرار . ولكنهما ما استطاعا إليه سبيلا . فلما مضى اليومان ، جاء أهل الميت إلى صاحبنا يطلبون منه الوفاء بوعده ، فيتقدم أبو الفتح ، ثابت الجنان ، ويحدر التمائم عن يده ، ويحل العمائم عن جسده . ثم يقول لهم : أنيموه على وجهه ! فأناموه . ثم يقول : أقيموه على رجليه ، فأقاموه . ثم يقول : خلوا عن يديه ! وإذا بالميت يهوى على الأرض فيتحطم ويتهشم . فيفغر صاحبنا فاه ، ويهز رأسه ، ويوقن أنه حقا ميت . فيوسعونه ضربا ورفسا ، ولكما وشتما ، فإذا شغلوا بالميت ، فر صاحبنا يحمل الأموال ويسوق أمامه الهبات(١)

***

صور من الحريرى

٦٣ — ولا يخرج ما عند الحريرى ، عما ذكره أبو دلف فى قصيدته أو مانوه به الجاحظ من قبل . على أن فى مقامات الحريرى من الحركة وبراعة التصوير ، الشىء الكثير . ويذكر الحريرى أنه رأى المطهر بن سلار المكدى فى أحد مساجد البصرة فسمع منه وقائعه وذكريات صباه ، فى هذه الحرفة الطيبة المباركة ، وأسرع إلى تدوينها فى مقاماته(٢)

---

(١) الهمذانى . المقامة الموصلية .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية (المقامات) ، وطبقات الشافعية للسبكى جـ ٤ صـ ٢٩٦ . وابن طغرى بردى جـ ٣ صـ ٢٣ .

فى هذه المقامات ، نجد أبا زيد السروجى يحتال فيبرع فى الاحتيال . ويبتز الأموال بذكاء وشطارة ودهاء . ها هو ذا يدخل المسجد محجوب المقلتين ، قد اعتضد شبه المخلاة ، واستقاد بعجوز كالسعلاة ، فيقف وقفة المتهافت ، ويحي تحية الخافت ، ويبرز من وعائه رقاعا قد كتبن بألوان الأصباغ ؛ فيناولها عجوزه الحيزبون ، لتتوسم له الزبون ... وإذا فى إحدى الرقاع أن الوجع قد أضره ، فينادى : هل حر يخفف أثقاله بمثقال من ذهب ، ويطفىء حر قلبه بسربال وسروال . فيغتر به الناس ، ويجود عليه الحارث بن همام ، بقميص وطعام . فيعود أبو زيد ، وإذا البؤس قد زال ، وإذا العمى قد ارتفع [1]

وها هو ذا يتحوّل عن المساجد إلى المقابر . فيقف على القبور ، متحصراً بهراوة ، قد لفع وجهه بردائه ، ونكّر شخصه لدهائه ، فيعظ كثيراً ، ويذكر حال الدنيا ومآلها ، والآخرة وعذابها ، وحور الجنة ونعيمها . فإذا أثّر فيهم الوعظ ، سألهم مالا . فيترعون له كفّه ، وينحدر فرحاً جذلان [2]

وقد نراه يهجر المساجد والمقابر ويتنقّل فى الشوارع : يطرق الأبواب سائلا ، فيخلب الناس بعذوبة نطقه ؛ فإذا دخل داراً

---

(١) مقامات الحريرى : المقامة البرقعيدية ص ٦٠ .

(٢) مقامات الحريرى : المقامة الساوية ص ٩٥ .

لوقى بالترحاب والسرور ، فأكل وشبع ، ثم يبكى ويشكو ؛ فيثير شفقة القوم . وإذا بهم يسارعون فيجودون عليه بالأموال [١] .

وربما تنكر بزى عجوز تسوق أمامها صبية ضعافا . فتأتى قوما تحدثهم أنها من سروات القبائل ، وسَرِيَّات العقائل . قلب لها الدهر ظهر المِجَنّ ؛ فاغبر العيش ، وازورّ الدرهم ، وتمنت للموت الأحمر ... فيألمون ويعطونها [٢]

قد يأتى بولده فيخبره أنه سيبيعه . فإذا باعه ، واشتراه أبله مغفل ، فرّ الولد وعاد إلى أبيه يضحك من غفلة مشتريه [٣]

وتراه يقف بعض الأحايين ، فينادى أن صديقه مات ، وليس عنده ثمن كفن ، بعد أن كان حليف الجود والندى ، وبعد أن رفل فى النعيم ، ولبس الخز والحرير [٤]

فأنت ترى بعد هذا كله ، أن المقامات قد قامت على صور للكدية ، وأن هذه الصور قد ذكرها أبو دلف فى قصيدته .

---

(١) مقامات الحريرى : المقامة الكوفية ص ٤٠ ، وانظر الهمذاني فى المقامة الكوفية أيضا ص ٣١ .

(٢) مقامات الحريرى : المقامة البغدادية ص ١٢٠ .

(٣) مقامات الحريرى : المقامات الزبيدية ص ٣٧٠ .

(٤) مقامات الحريرى : المقامة الفارقية ص ١٩٣ .

وإذا كان ابن فارس[١] وابن دريد[٢] قد يكونان قد هيأ للهمذانى المقامة من حيث شكلها ونهجها وكان الحريرى قد تأثر بالبديع ، فإن أبا دُلف قد هيأ لهما معاً مادة تلك المقامات وصورها .

***

الشحاذون في الأدب الفرنسى

٦٤ — أما فى الأدب الفرنسى ، فنحن إذا استثنينا ڤيلون ، فلا نكاد نجد فى وصف الشحاذين وطرقهم فى الإكداء ، اللهم إلا صورة رسمها ڤيكتور هوغو فى روايته « أحدب نوتردام Le Bossue de Nótre Dame » وصف بها طائفة من (النوَرَ) الذين كانوا يتسولون ، وسنراها بعد قليل .

الشحاذون عند الرسامين وأشهر اللوحات الزيتية

٦٥ — ولئن قلّت الصور الأدبيـة ، فقد كثرت صور المصورين والفنانين فى أوربة كلها . فقد وجدوا فى مناظر الشحاذين مايستحق أن تخطه ريشتهم فى لوحات رائعة . فأثبتوا هيئاتهم وما فيها من غريب ، وأطمارهم وما فيها من عجيب ، وعُنوا بإظهار ملامح وجوههـم وتجعداتها ، ولحاهم الـكثّة وشعورها ، وكشا كيلهم ورِقعها . وأشهر هذه اللوحات الفنية « هرّارا لوڤيو Herrara Le Vieux » التى تمثل شحاذاً

---

(١) ابن خلـكان جـ ١ ص ٤٣ .

(٢) أنظر النثر الفنى فى القرن الرابع فى بحثه عن المقامات .

واقفاً فيه كثير من الحياة والواقعية ، ولوحة « موريللو Murello »
« الشحاذ الصغير » وتعد من أروع آثاره . وهى فى اللوفر ،
ولوحة « رامبراندت Rembrandt » التى تمثل شحاذاً يعزف
على قيثارة . وهى محفوظة فى متحف أمستردام . وبرع
« بوردون S . Bourdon » فى لوحته « الشحاذين » التى
صوّرها . وقد حفل أصحاب المدرسة الفلاماندية بالشحاذين
عناية كبرى . وفى اللوحات المشهورة أيضاً لوحة « دُلاروش
P . Delaroche » التى صور فيها « الشحاذة الإيطالية » .
ولوحة « رينولد Reynold » الأنجليزى التى تمثل « الشحاذ
الصغير » ، والتى تبدو فيها الروح الأنجليزية بأظهر معانيها . ورسم
« جانرون Jeanron » شحاذاً أعمى . وصوّر « لُهمان
R . lehman » الشحاذين الرومان .

أشهر التماثيل

٦٦ — ولم يقنع فنانو أوروبة بالتصوير ، بل تعدوه إلى
صنع التماثيل . فصنع « بريولت Préault » تمثال « الكدية
Mendicité » بالجص ، وصنع « غريوّ gril lon » تمثال
« طائفة من الشحاذين » بالآخر[١] .

---

(١) N. Larousse Tllustrée Mat (Maudiant)

الفصل الرابع

حياة الشحاذين

دورهم وأعراسهم

رأيت فى الفصل السابق ، كيف لجأ المكدون إلى ابتزاز الأموال بحيل بارعات وطرق غريبة . فبلغوا بمخرقاتهم ما بلغوه ونالوا ما تمنوه ، ولم يفتهم شيء من لذات الحياة التى لذ بها آخرون ، و إنما فاتهم ما كان عند غيرهم من الترفع عن الدنايا والنبالة فى المزايا ، واللباقة فى الحياة .

تنقلهم

٦٧ — لقد عاش الشحاذون متشردين ، يتنقلون من مكان إلى مكان ، ومن بلد إلى بلد ، بل من حى إلى حى ، فحيثما لقطوا سقطوا ، فكانوا يأخذون أطايب كل بلد ، تراهم بالكوفة أيام الهيرون ، وفى البصرة أيام الشبوط ، وفى بغداد وقت الرازقى والرمان ، وفى حلوان أيام التين والجوز ، وفى الجبل أيام اللوز ، يأكلون من طيبات الأرض ، لا يغتمون ولا يخافون ، ولا يهتمون أو يرهبون .

تلك كانت حياتهم : فوضى يرون فيها لذة ، وحيل تبرر عندهم الغاية ، وخدع كلها دناءة ، يضحكون من الناس ويلهون ويبتزون المطاع والأموال ولا يحزنون .

دورهم فى فرنسه

٦٨ — ولا ندرى شيئاً عن حياتهم الخاصة . فقد كان شحاذو فرنسة يتبعون مذهب الإباحة فى كل شىء ؛ فما كان للواحد هو للجميع . وقد وصفهم هوغو فى روايته « أحدب باريس » مأواهم الذى يأوون إليه في الليـــل . يقول : « مكان واسع ، لا نظام فيه ، نيران تشتعل فى منتصف الباحة يتحلق حولها فئات عجيبة ، وينعكس النيران فيضىء هنا ، ويظلم هناك . وكانوا يذهبون ويجيئون ، ويصيحون ويتكلمون ويغنون ؛ فما تسمع غير الضحكات المثيرة ، وصراخ الأطفال ، وأصـوات النساء . وقد ترى فى بعض الأحايين ، فى البقاع المضاءة بالنار ، كلاب تمر وتجثو أمام الرجال ، ورجال يجلسون أمام الـكلاب .

وقد كان يخيل أن حدود الأجناس والأنواع تُمحى فى هذا المـكان . ويخيل أن الرجال والنساء والحيوانات والأمراض كل أولئك مشاع بين هؤلاء . كل شىء مبهم غامض مخيف .

والواحـــد يملك الجميع[١] ... »

صورة من صوفيل

٦٩ — وهذه الصورة تذكرنا بوصف المؤرخ الفرنسى « صوفيل Sauvel » فى كتابه « تحريات عن آثار مدينة باريس » لدور الشحاذين . يقول : « ها هو ذا مكان واسع ، غير منتظم . أرضه ملأى بالوحل ، جوه مفعم بأخبث الروائح؛ ولابد للوصول إليه من الهبوط فى منحدر طويل متعرج . فإذا دخله الإنسان شعر أنه دخل عالماً آخر بعيداً عن دنياه التى كان فيها ... » ثم يذكر أنه رأى داراً من دورهم مملوءة بالوحل ، تكاد تنقض من الوهن ، كانت تسكن فيها خمسون أسرة ، ذوات أولاد كثيرين ، شرهيين وطبيعيين ، ولقطاء[٢] ... »

صورة من الحريرى عرس في دار

٧٠ — ولا ندرى ، وقد وصفنا دور شحاذى فرنسة ، كيف كان دور شحاذينا . ومن المرجح أنه كان لهم ندوات يجتمعون فيها . ولم ينته إلينا وصف دورهم وندواتهم . غير أن الحريرى ، فى المقامة الصورية يصف لنا عرس مكد على مكدية نستطيع أن نتبين من وصفه ، داراً من الدور التى كانت لهم وهى دار حقيرة فى الظاهر ، عظيمة فى الباطن ، فظاهرها الفقر وباطنها النعيم . يقول « فلما نزلنا عن صهوات الخيول ، وقدمنا

---

(١) فرانك برنتانو ص ٥٢ .

(٢) أنظر فرنك برنتانو ص٥١ .

الأقدام للدخول ، رأيت دهليزاً مجلَّلاً بأطمار مخرقة ، ومكللا بمخارف[1] معلقة. وهناك شخص على قطيفة ، فوق دكة لطيفة ، فرابنى عنوان الصحيفة . ودعانى التطير إلى أن عمدت لذلك الجالس ، فعزمت عليه بمصرف الأقدار ليُعَرِّفنى من رب هذه الدار . فقال : ليس لها مالك معين ، ولاصاحب مبين ؛ إنما هى مصطبة المقيفين والمدروزين ، ووليجة المشقشقين والمجلوزين[2] فولجت الدار متجرعا الغصص ، كما يلج العصفور القفص ، فإذا فيها أرائك منقوشة ، وطنافس مفروشة ، ونمارق مصفوفة ، وسجوف مرصوفة ، وقد أقبل العروس يميس فى بردته ، فحين جلس كأنه ابن ماء السماء ، نادى مناد من قبل الأحماء : وحرمة ساسان ، أستاذ الأستاذين ، وقدوة الشحاذين ، لا عقد هذا العقد المبجل ، فى هذا اليوم الأغر المحجل ، إلا الذى جال وجاب ، وشب فى الكدية وشاب ... » وإذا بأبى زيد السروجى يتقدم فيخطب خطبة النكاح ويثنى على الزوج ، بأنه ولَّاج ابن خرَّاج ، ذو الوجه الوقاح ، والإفك الصراح ، والهرير والصياح . ويعقد العقد على صداق هو : مخلاة وعكاز ، ورداء للاكداء ، وكوز صغير .

---

(١) المخارف ، ج ، مخرف ؛ وهو الزنبيل الذي يجعل فيه المكدى طعامه .

(٢) ضروب من الشحاذين .

الفصل الخامس

محاسن الكدية

محاسن الكدية

٧١ — وللكدية محاسن باهرة ، لا بد من ذكرها . فهذا مكد ينصح لابنه بأن يكدى ، فيعرض أمامه المكاسب كلها فما يزال يبين مساوئها ، ويظهر معايبها حتى يقنع ابنه بأن الكدية سيدة الحرف وينبوع الخيرات .

« يا بنى ! إنى جربت حقائق الأمور ، وبلوت تصاريف الدهور ، فرأيت المرء بنَشَبه لا بنسبه ، والفحص عن مكسبه لا عن حسبه ، وكنت سمعت « أن المعايش إمارة وتجارة وزراعة وصناعة » ، فمارست هذه الأربع لأنظر أيها أوفق وأنفع ، فما استرغدت فيها عيشة . أما فُرَص الولايات وخُلَس الإمارات فأضغاث أحلام ... وأما بضائع التجارات فعرضة للمخاطرات وطعمة للغارات . وأما اتخاذ الضياع ... فمنهكة للأعراض ، وأما حرف الصناعات فغير فاضلة عن الأقوات ، ولا نافعة فى جميع الأوقات ... ولم أر ما هو بارد المغنم ، لذيذ المطعم ، وافى المكسب ، صافى المشرب إلا الحرفة التى وضع ساسان أساسها

ونوّع أجناسها . فشهدت وقائعها معلماً ، واخترت سيماها لى ميسما . إذ كانت المتجر الذى لا يبور ، والمنهل الذى لا يغور ، والمصباح الذى يعشو إليه الجمهور ، ويستصبح به العُمْى والعور . ولقد كان أهلها أعز قبيل ، وأسعد جيل ، لا يرهقهم مس الصيف ، ولا يقلقهم سل السيف ، ولا يرهبون ممن برق ورعد ، ولا يحفلون بمن قام وقعد . أنديتهم منزهة ، وقلوبهم مرفهة ، وطُعمهم معجلة . أينما سقطوا لقطوا ، وحيثما انخرطوا خرطوا ، لا يتخذون أوطاناً ولا يرهبون سلطاناً . »

والحق أنهم وجدوا فى الكدية من طمأنينة العيش وهدوء البال مالا يجده غيرهم فى الصناعات . « فصناعتهم محببة لذيذة وصاحبها فى نعيم لا ينفد ، فهو على بريد الدنيا ومساحة الأرض وخليفة ذى القرنين الذى بلغ المشرق والمغرب ، فحيثما حل لا يخاف البؤس . يسير حيث شاء ، ويأخذ كما رأيت ، أطايب كل بلد . فهو ساعة فى البصرة ، ويوما فى حلوان ، وليلة فى الجبل . وهو رخى البال حسن الحال ، لا يغتم لأهل ولا مال ، ولا دار أو عقار .

فهذه الأوصاف تغرى وتغوى . وأكرم بمهنة كلها فوضى لا يقيدها قيد ، ولا يخضع الإنسان فيها لنظام ، يأتيه رزقه رغداً من هنا وهناك ، لا يؤسر فى وطن ولا يأبه بأحد ، ولا يعرف الخلق الكريم ولا الشرف الرفيع . إنه حر ، حر طليق

الفصل السادس

شروط الصناعة

٧٢ — ولم يَنْسَ ذلك المكدى ، وقد نصح لابنه أن يصبح مكدياً ، إرشاد إبنه إلى ماينبغى له عمله ، وتبيان صفات حرفته وشروط صناعته فيقول : « واعلم أن الارتكاض بابها ، والنشاط جلبابها ، والفطنة مصباحها ، والقِحَةَ سلاحها . فلُجَّ كل لجٍّ وانتجعْ كل روض ، وألقِ دلوَك فى كل حوض ، ولا تسأم الطلب ، ولا تمل الدأب . فقد كان مكتوباً على عصا شيخنا ساسان : من طلب جلب ، ومن جال نال ...[١] »

« وأبرز يا بنيَّ باكراً ، بحرارة الأسد ، وخَتْل الذئب ، وحرص الخنزير ، ونشاط الظبى ، ومكر الثعلب ، وصبر الجمل ، وتلطّف الهر ، وتلوّن براقش ، وحيلة قصير ، ودهاء عمرو ، ولطف الشعبىّ ، وفطنة إياس ، ومجانة أبى نواس ، وطمع أشعب وعارضة أبى العيناء[٢] » .

---

(١) المقامة الساسانية ص ٥٧٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٧٧ .

فهذا عبقرىّ الشحاذين !

أفسمعت إلى هذا الوصف ؟ أرأيت هذه الصفات ؟ وليت شعرى ما الذى يعوزه بعد . وقد أوصاه بالحرارة والختل، والحرص والنشاط ، والمكر والصبر ، والتلطف والتلوّن ، والحيلة والدهاء والفطنة والمجانة ، والطمع والعارضة .

إن مثل هذا ليستخرج الدرهم من مخابئها مهما جهد الإنسان لإخفائها ، بل إن الدرهم ليسعى إليه سعياً ، وهو هادئ مطمئن .

ولا تحسبنّ شروطها تمت ، وصفاتها وفّيت ، فإن لها شروطاً أخر . يقول : « واتخذ بصيرتك للعيافة[١] ، وأنعِم نظرك للقيافة[٢] ، فإنّ مَنْ صدق توسمه[٣] ، طال تبسُّمه ، واشكر على النقير[٤] ، ولا تقنط عند الرد ، ولا تَستَبعد رشح الحجر الصلد ، ولا تيأس من رَوْح الله فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون …

« وإذا خيِّرت بين ذرّة مفقودة ، ودرّة موعودة ، فمِل إلى النقد وفضّل اليوم على الغد . فإن للتأخير آفات ، وللعزائم

(١) العيافة زجر الطير للفأل .

(٢) القائف الذى يعرف الآثار ويلحق الآباء بالأبناء .

(٣) يعنى أنه من توسم أمرا وتفرس فيه ثم جاء على وفق ما توسم لشدة فطنته كان دائم التبسم .

(٤) المراد الشىء الحقير .

بدوات ، وعليك بصبر أولى العزم ، ورفق ذوى الحزم ، وتخلّق بالخلق السّبط[١] ، وقيّد الدرهم بالربط ، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، ومتى نبا بك بلد ، أو نابك فيه كمد ، فبُتّ[٢] منه أملك ، وامْرَح عنه جَمَلك ، ولا تستثقلَنّ الرِّحلة ، ولا تكرهن النُّقلة ، فإن أعلام شريعتنا وأشياخ عشيرتنا ، أجمعوا على أن الحركة بركة ، وزَرَوْا على من زعم أن الغربة كربة . وإذا أزمعتَ على الاغتراب ، وأعددت له العصا والجراب . فتخيَّر الرّفيق المُسْعِد ، من قبل أن تصعِد ، فإن الجار قبل الدار ، والرفيق قبل الطريق .

« وإياك والكسل ؛ فإنه عنوان النحوس ، ولبوس ذوى البوس ، وشيمة العجزة ، وعليك بالإقدام ، ولو على الضرغام ؛ فإن جراءة الجنان ، تُنْطِقُ اللسْان ، وتُطلِقُ العِنان ، وبها تُدْرَكُ الحظوة ، وتملك الثروة . ولهذا قيل فى المثل : من جَسَر أيسر ، ومن هاب خاب .

« يا بنىَّ ! قد أوصيت واستقصيت ؛ فإن اقتديت فواهاً لك ، وإن اعتديْت فواهاً منك . والله خليفتى عليك ، وأرجو أن لا تخلف ظنى فيك .

---

(١) الخلق السهل الرضي .

(٢) بت أى اقطع .

« ولما سمع بنو ساسان ، هذى الوصايا الحِسان ، فضَّلوها على وصايا لقمان ، وحفظوها كما تحفظ أم القرآن ...[١] » .

تلك هى وصية مكد لابنه . فلا غرو أن يُسَمى من يتخلق بهذه الأخلاق « هو أبو الدرَّاج ، ولاًّج بن خرّاج ، ذو الوجه الوقاح ، والإفك الصراح ، والهرير والصياح والإبرام والإلحاح »

ومهما ذكرت لك من الصِّفات وفصَّلت ، فلن أستطيع أن أوفِّى واحداً منهم حقه . كما وصف واحد منهم نفسه . ولعلَّ هذا الوصف الذى سأنقله إليك ؛ من أبرع ما خلّف الجاحظ ؛ ففيها من الدقة والبراعة والشمول ما يعجز عنه كبار الوصافين فى الغرب .

---

(١) المقامة الساسانية صـ ٥٨٠ .

الفصل السابع

شحاذ

٧٣ — قال الجاحظ : « كان خالد بن يزيد ، شيخ المكدين . وكان قاصاً متكلما بليغاً داهياً . فلما جاءه الموت دعا بابنه وقال له :

« إنى قد بلغت فى البر منقطع التراب ، وفى البحر أقصى « مبلغ السفين ؛ فلا عليك ألا ترى ذا القرنين .

« وقد بت بالقفر مع الغول . وتزوجت السعلاة [١] « وجاوبت الهاتف [٢] ، ورغت عن الجن إلى الجن [٣] ، واصطدت « الشق [٤] ، وصحبنى الرئى [٥] ، وعرفت خدع الكاهن ، وتدسيس « العراف ، وإلى ما يذهب إليه العياف [٦] وما يقوله أصحاب

---

(١) السعلاة زوج الغيلان الأنثى ؛ ج سعالى .

(٢) فى اللسان : سمعت هاتفا يهتف إذا كنت تسمع الصوت ولا تبصر أحداً .

(٣) راغ إلى كذا ، مال . والجن حى من الجن .

(٤) حيوان خرافى كنصف الانسان .

(٥) جنى يتعرض للرجل يريه كهانة وطبا ، يقال مع فلان رئى .

(٦) العيافة زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها ومرها ، والعياف صاحبها .

« الأكتاف[1] وعرفت التنجيم والزجر .

« إن هذا المال لم أجمعه من القصص والتكدية ، ومن
« احتيال النهار ومكابدة الليل ، ولا يُجمع مثله أبداً إلا من
« معاناة ركوب البحر ، ومن عمل السلطان أو من كيمياء
« الذهب والفضة .

« وإنى قد لابست السلاطين والمساكين ، وخدمت
« الخلفاء والمكدين ، وخالطت النُسَّاك والفتّاك ، وعمرت
« السجون كما عمرت مجالس الذكر ، وحلبت الدهر أشطُرَه ،
« وصادفت دهراً كثير الأعاجيب . فلولا أنى دخلت من كل
« باب ، وجريت مع كل ريح ، وعرفت السراء والضراء ؛
« حتى مثلت لى التجارب عواقب الأمور ، وقربتنى من
« غوامض التدبير ، لما أمكننى جمع ما أخلفه لك ، ولا حفظ
« ما حبسته عليك ، ولم أحمد نفسي على جمعه كما حمدتها على
« حفظه . وقد حفظته من فتنة الأبناء ، ومن فتنة النساء ،
« ومن فتنة الثناء ، ومن فتنة الرياء ، ومن أيدى الوكلاء ،
« فإنهم الدار العياء .

« ... وأنا لو ذهب مالى لجلست قاصاً ، أو طفتُ فى الآفاق

---

(١) الكتاف الذى ينظر في الأكتاف ، فيتكهن فيها .

« كما كنتُ مكديا . اللحية وافرةٌ بيضاء ، والحلق جهير ُطل (١)
« والقبول عليّ واقع . إن سألت عيني الدمع أجابت . والقليل
« من رحمة الناس خير من المال الكثير . وصِرت محتالا بالنهار
« واستعملت صناعة الليل (٣) ، أو خرجت قاطع طريق ، أو
« صرتُ للقوم عيناً ، ولهم مِجْهَراً (٤)

« سل عني صعاليك الجبل ، و زواقيل الشام (٥) ، و زطّ
« الآجام (٦) ورؤوس الأكراد ، ومَرَدَة الأعراب (٧) ، ولصوص
« القَفْص (٨)

« سل عنى القيقانية (٩) والقَطْرِيَّة (١٠) . وسل عني ذبَّاحي
« الجزيرة . كيف بطشي ساعة البطش ، و كيف حيلتي ساعة
« الحيلة . و كيف ثبات جناني عند رؤية الجند ، و كيف كلامي
« عند السلطان إذا أُخذت ، و كيف صبري إذا جُلدت ،

---

(١) الحلق الجهير : ذو الصوت الجهير ، وطل حسن .
(٢) السمت : الهيئة .
(٣) صناعة الليل : السرقة .
(٤) عينا أي جاسوسا .
(٥) الزواقيل اللصوص .
(٦) الزط جنس من السودان طوال نحاف ، واحدهم زطي .
(٧) مرد يمرد إذاعتا ، فهو مارد .
(٨) القفص جيل من لصوص كرمان (اللسان)
(٩) لصوص من قيقان على حدود الهند (مقدمة البخلاء طبعة لندن)
(١٠) القطر موضع بين واسط والبصرة ، والنسبة إليه .

« وكيف قلة ضجرى إذا حُبست ، وكيف رَسَفَانى فى القيد
« إذا أُثقلت .

« كم من ديماس قد نقبته ، وكم من سجن قد كابدته .
« وأنت غلام بعد ، وليس شىء أخوف عليك عندى من حسن
« الظن بالناس ، فإنهم شمائلك عن يمينك ، وسمعك على
« بصرك[1] ... »

ثم مات !

فانظر إلى هذا المكدى . إنه لم يدع رذيلة إلا ارتكبها ، ولا طائفة من اللصوص إلا عرفها ، ولا فئة من المكدين إلا عاشرها ، ولا حيلة من حيل الليل والنهار إلا طرقها ، ولا قطراً من الأقطار إلا دخله . حتى غدا كقارون فى الغنى ، وكذى القرنين فى التطواف .

***

وبعدُ ، فتلك هى الكدية ... وأولئك هم المكدون .

---

(١) البخلاء ٩٤ (دار الكتب) ٧٨ (دمشق) .